سرور

النفوذ الفاطمي

النفوذ الفاطمي

في جزيرة العرب

تأليف
الدكتور محمد جمال الدين سرور
مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

لنشر سلطانهم ببلاد الحجاز ، فوضحت كيف ناهضوا نفوذ العباسيين فى الأماكن المقدسة ، وأقاموا الدعوة لهم بهذه الأماكن ، وأصبحوا بفضل رعايتهم شئون مكة والمدينة وتأمينهم الوافدين إليهما موضع تقدير العالم الاسلامى .

كذلك تناولت بالبحث قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين وولاء أمرائها للفاطميين واتحادهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين ، ثم تحدثت عن العوامل التى بدّلت من صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وما تبع ذلك من ضعف السيادة الفاطمية ببلاد البحرين .

ولما كانت بلاد اليمن موطن الدعوة الفاطمية بجزيرة العرب ، لذلك وجهت عنايتى إلى توضيح السياسة التى اتبعها الخلفاء الفاطميون للابقاء على نفوذهم بهذه البلاد ، كما بينت ما كان لتوثق عرى الصداقة بين هؤلاء الخلفاء وبعض أمراء اليمن من أثر فى احتفاظ الفاطميين بمركز ممتاز فى بلادهم .

أرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق فيما أنا بسبيله من خدمة تاريخ الإسلام والعرب ؟

القاهرة فى { ٣ جماد الأول سنة ١٣٦٩ — ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٠ }

محمد جمال الدين سرور

محتويات الكتاب

الفصل الأول

الدعوة الفاطمية فى بلاد الحجاز

الفصل الثانى

السيادة الفاطمية فى بلاد البحرين

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية فى اليمامة وعمان

الفصل الرابع

النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن

صفحة

الفصل الأول

الدعوة الفاطمية فى بلاد الحجاز

تمهيد : كان لقيام الخلافة فى جزيرة العرب أثر كبير فى وحدتها السياسية ، فلما انتقل مركزها من المدينة المنورة إلى الكوفة ثم إلى دمشق فى عهد الأمويين ، ثم إلى بغداد فى عهد العباسيين تفككت عرى هذه الوحدة ، وانقسمت جزيرة العرب إلى ولايات متفرقة وهى : بلاد الحجاز وبلاد البحرين واليمامة وعمان وبلاد اليمن .

لم يتمتع سكان هذه البلاد من العرب طويلا بمركز ممتاز فى الدولة الاسلامية على الرغم مما بذلوه من جهد مشكور فى نشر الدعوة الاسلامية وفى فتح الأراضى الخاضعة لنفوذ الفرس والروم ، فقد أثارت سياسة الدولة الأموية القائمة على التعصب للعرب المسلمين من غير العرب وانتهى الأمر بحدوث ذلك الانقلاب الذى أزال سلطان العرب وبعث النفوذ الفارسى الذى مثل دوره بشكل واضح منذ قيام الدولة العباسية حتى ولى المعتصم الخلافة ، فساء ظنه بالفرس ولم يعد أمامه بعد أن جفا العباسيون العرب إلا البحث عن عنصر جديد ليس له الأهواء السياسية التى للعرب وليست له المصالح الخاصة التى للفرس وهداه تفكيره الى الاستعانة بالأتراك ، فأكثر منهم وخصهم بالنفوذ وجعل لهم مركزاً فى مجال السياسة والحرب ، وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش كما كتب إلى عماله فى الولايات الاسلامية بإسقاط أسمائهم من الدواوين وقطع

العطاء عنهم ، وبذلك حرم العرب من المرتبات المقررة لهم فى ديوان العطاء.

لم يكن لدى العرب القوة التى يستطيعون بها استعادة سلطانهم لتفرق كلمتهم في الجزيرة العربية ، فقد حرص كل فريق منهم على العمل لمصلحته دون سواه مما أدى إلى فشل قضيتهم التى كانوا يدافعون عنها وزادت حالتهم سوءا فى العصر العباسى الثانى لاستئثار الأتراك بالنفوذ والسلطان فى الدولة الاسلامية .

كذلك كانت الأمور فى جزيرة العرب غير مستقرة بسبب الفتن التى أثارها العلويون فى بلاد الحجاز واليمن ، أضف إلى ذلك ظهور القرامطة فى بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامة وعمان . وكان لهذه الأحداث أسوأ الأثر فى جزيرة العرب ، فصارت فى شبه عزلة ، كما تأخرت ماديا وعلميا .

* * *

كان العلويون فى بلاد الحجاز كثيرا ما يثيرون الاضطرابات ضد العباسيين ، فلما قضى خلفاء العصر العباسى الأول على حركاتهم ضعف أمرهم واستكانوا ، وظل ولاة بنى العباس يتولون الحكم فى بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التى أثارها الأتراك فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فاستغل هذه الفرصة بعض العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان من بنى سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب وعملوا على الاستقلال بإمارة مكة[1] ، وسرعان ما تغلبوا عليها وأسسوا بها دولة السليمانيين وخلع أميرهم طاعة العباسيين

(1) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١١

وخطب لنفسه بالإمامة سنة ٣٠١ﻫ فى خلافة المقتدر [١] ، وقال فى خطبة له بموسم الحج : « الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه ، وأبرز زهر الايمان من أكمامه ، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بنى أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وكفَّ عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين [٢] » .

على أن دولة بنى سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع حماية الحجاج وصد المغيرين عليها ، فقد هددها القرامطة فى بلاد البحرين واستولوا عليها سنة ٣١٧ﻫ وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب ؛ وعلى الرغم من ذلك كله فلم يقض على سيادة العباسيين على مكة إلا فترة قصيرة من الزمن ، فقد شغل القرامطة عنها بالعمل على تحقيق أطماعهم فى بلاد المشرق مما ساعد على عودة نفوذ العباسيين إلى مكة ، فأقيمت الخطبة فيها للراضى بن المقتدر سنة ٣٢٧ﻫ [٣] ، بل إن هذا الخليفة أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الأخشيد والى مصر من قبله ، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده ، فضم الحجاز الى محمد الأخشيد [٤] وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ﺟ ٤ ص ٢٦٧ — ٢٦٨
(٢) ابن خلدون ﺟ ٤ ص ٩٩
(٣) ابن خلدون : ﺟ ٤ ص ١٠٠
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ﺟ ٢ ص ٥٣ — ٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ﺟ ٣ ص ٢٣

وقد نوه محمد الأخشيد بتقلده مكة والمدينة فى الكتاب الذى أرسله إلى رومانوس امبراطور الروم . وكان هذا الامبراطور قد بعث إليه كتابا قال فيه : إنه لم تكن عادته أن يكاتب إلا الخليفة والتمس تبادل الأسرى ؛ فكتب إليه محمد الاخشيد كتابا أشار فيه إلى المكانة السامية التى يتمتع بها مدللا على ذلك بالبلاد التى فى حوزته ؛ وبعد أن ذكر أن منها مصر وبلاد الشام قال : « هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حدث من الفضل تُوفى على كل مملكة لأنها محج آدم ومحج ابراهيم وارثه ومهاجره ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام.. ومنها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته وأنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر والسهل والوعر والشرق والغرب وصحارى العرب على بعد أطرافها وتنازح أقطارها وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمها فى وفودها ، وشدتها وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها وبعد مرامها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وإن الله تعالى أباد خَضْراء كسرى وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها ... »

ظلت سيادة العباسيين قائمة بمكة بعد أن تقلد ولايتها الأخشيديون فى مصر ؛ فلما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ شاركوهم هذه السيادة ، فأقيمت الخطبة بمكة للمطيع العباسى مع معز الدولة بن بويه ، ثم عمل البويهيون على ألا يكون للاخشيديين نفوذ فى الأراضى المقدسة

(١) القلقشندى : جـ ٧ ص ١٠ — ١٤

ببلاد الحجاز ، وقام الخلاف سنة ٣٤٢ هـ بين أمير الحج المصرى وأمير الحج العراق على الخطبة لابن بويه أو ابن الأخشيد ، وتطور النزاع إلى نشوب الحرب بين أنصار كل منهما ، فلما انهزم المصريون أقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه[1] . على أن ذلك لم يقض نهائياً على نفوذ الأخشيديين بمكة ، فقد ولى الخليفة المطيع كافور الأخشيدى بلاد الحجاز بالاضافة إلى مصر والشام ، وصار يدعى له بمقتضى هذه التولية على منابر هذه البلاد مع الخليفة العباسى[2] ، ثم دعى بعد وفاته للحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد[3] .

لم يكن اهتمام العباسيين ببسط سلطانهم على المدينة المنورة أقل من حرصهم على الاحتفاظ بسيادتهم على مكة . وكان العلويون قد اتخذوا المدينة مركزاً لاثارة الفتن فى وجه الخلافة العباسية مما حمل بعض الخلفاء على إسناد ولايتها إلى وال مستقل عن والى الحجاز حتى يتفرغ للعمل على استقرار الأمور فيها والقضاء على ثورات العلويين . ولما تقلد الأخشيديون بلاد الحجاز دخلت المدينة فى حوزتهم ، فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها .

كان يقيم بالمدينة بعض أفراد من بنى الحسين بن على بن أبى طالب ، أخذوا يتحينون الفرص للاستقلال بولايتها كما فعل بنو سليمان بمكة ، لكنهم لم يكن لديهم القوة التى تساعدهم على تحقيق أغراضهم ؛ فلما قدم

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٠٠

(٢) أبو الفدا : جـ ٢ ص ١٠٧ ، المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٣٠

(٣) أبو المحاسن : جـ ٤ ص ٩ — ١٠

عليهم من مصر طاهر بن مسلم[١] من أحفاد الحسين ولوه أميراً عليهم ، وما لبث طاهر أن استقل بإمارة المدينة سنة ٣٦٠ هـ[٢] . ولم تقم الخلافة العباسية بأى محاولة للوقوف فى وجهه بسبب ما أصابها من ضعف .

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على كل من مكة والمدينة لا ينازعهم فيها منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم فى إفريقية وأخذوا يعملون على توسيع رقعة دولتهم وذلك باستيلائهم على مصر والشام ؛ فلما تم لهم فتح هذه البلاد وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضى المقدسة بالحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الاسلامى ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية . ولم يدر بخاطر العباسيين بعد أن تقلدوا زمام الحكم أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر فى وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم فى الخلافة ؛ فلما طمع الفاطميون فى السيطرة على هاتين المدينتين ، ظهرت من ثنايا النزاع بينهم وبين العباسيين على امتلاك الأراضى المقدسة بالحجاز نظرية جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين الحقيق هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكى والمدنى .

وكان العلويون فى هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى أخيراً فيفوز بالغنيمة ؛ فاستقل أمراء الأشراف من بنى الحسن

---

(١) كان مسلم يدبر أمر مصر أيام كافور واسمه محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن على بن الحسين بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٩)

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٢

بمكة ، كما استقل بالمدينة أمراء الأشراف من بنى الحسين وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين [1] .

بدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمى فقد رأى هذا الخليفة على أثر ما بلغه عن وقوع نزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب أن يعمل على حسم الخلاف بينهم ؛ فأنفذ إليهم سراً مالا ورجالا سعوا بين هذين الفريقين حتى عقدوا بينهم صلحاً فى المسجد الحرام ، وقام رسل الخليفة الفاطمى بأداء دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨ هـ مما كان له أحسن الأثر في نفوسهم ، فبادر الحسن بن جعفر أمير مكة إلى الدعاء للمعز على منابر مكة بعد أن تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ . ولما علم بذلك المعز أنفذ إليه من المغرب بتقليده الحرم وأعماله [2] .

كذلك أقيمت الخطبة للمعز بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة في كل من مكة والمدينة [3] ، وعمل المعز على تثبيت سلطته على هاتين المدينتين بالأموال التى صار يرسلها إليهما ؛ فقد أنفذ سنة ٣٥٩ هـ - كما قال المقريزى [4] - « عسكراً وأحمال مال عدتها عشرون جملا للحرمين وعدة أحمال متاع » - وبذلك تيسر له نشر نفوذ الفاطميين فى بلاد الحجاز .

ظلت الخطبة تقام للمعز فى كل من مكة والمدينة حتى توفى سنة ٣٦٥ هـ وخلفه ابنه العزيز ، فانقطعت الخطبة له فى بلاد الحجاز ؛ فبعث

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٥ - ٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ - ١٤٦

(٣) عبد القادر الانصارى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٢

(٤) اتعاظ الحنفا ص ١٧٢

إليها سنة ٣٦٧ هـ بإدريس بن زيرى الصنهاجى أميراً على الحاج ، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة [١] ؛ على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقراً فى مكة والمدينة طوال عهد العزيز ، فقددعا أمير حاج العراق لعضد الدولة بن بويه ، واضطر العزيز سنة ٣٨٠ هـ إلى إرسال حملة إلى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها ، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين [٢] .

ظل طاهر بن مسلم الذى يعد أول أمير من بنى الحسين استقل بالمدينة موالياً للفاطميين حتى توفى سنة ٣٨١ هـ ، تخلفه فى إمارتها ابنه الحسن بن طاهر ويلقب مهنى [٣] ، فسار على نهج أبيه فى اعترافه بسيادة الفاطميين على المدينة . أما إمارة مكة فكان يليها فى ذلك الوقت عيسى ابن جعفر من بنى الحسن . ولما توفى سنة ٣٨٤ هـ خلفه أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر . وقد أقام كل منهما الخطبة للفاطميين اعترافاً بما لهم من نفوذ على مكة .

وكان الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر فى بداية عهده مخلصاً فى ولائه للفاطميين ، فقد طلب منه الخليفة القادر بالله العباسى الدخول فى طاعته وأغراه بالمال والخلع التى بعثها إليه ؛ كما وعده بالعمل على إبقاء الحكم فى مكة وراثياً لبنيه من بعده ، لكنه رغم ذلك أبي تحقيق رغبة الخليفة العباسى وبعث إليه بأن الخطبة فى مكة تقام للخليفة الحاكم بأمر الله دون

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٠١

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٠١ ، عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٣

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٠٩

سواه[1] ، كما أبقى للفاطميين سيادتهم على المدينة بأن سار إليها سنة ٣٩٠هـ وأزال عنها إمرة بنى مهنى حين بلغه طعنهم فى نسب الفاطميين ، لكنه لم يحتفظ طويلا بإمارة المدينة ، فقد استعادها بنو مهنى بعد عودته إلى مكة ودخلوا منذ ذلك الوقت فى طاعة الفاطميين .

على أن أبا الفتوح أمير مكة لم يستمر على ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فقد خرج عليه سنة ٤٠٠هـ بعد أن أغراه الوزير أبو القاسم حسين بن على بن المغربى بانتحال لقب الخلافة ـ وكان هذا الوزير ناقماً على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه ـ لذلك عول على إضعاف شأنه ، ففر من مصر إلى حسّان بن مفرج بن الجراح أمير طيئ بالرملة وحسّن له خلع طاعة الحاكم ، فاستجاب له وعهد إليه بالتوجه إلى أبى الفتوح أمير مكة ليُفسِدهُ على الحاكم ويدعوه إلى الخلافة[2] ؛ فلما قدم الوزير أبو القاسم بن المغربى مكة أطمع أبا الفتوح فى الرياسة وحرّضه على طلب الخلافة ، كما حثّه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسّان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته ، فرحب أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وأخذ ابن المغربى يدعو القبائل العربية من سليم وهلال وعوف بن عامر لمعاونة أبى الفتوح ، ثم سار من مكة قاصداً الرملة وبصحبته أبى الفتوح والعرب الذين أجابوا دعوته ؛ فلما اقترب أبو الفتوح من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له

(١) عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٥٧

وبايعوه بالخلافة ، ثم ساروا فى ركابه ، ونزل أبو الفتوح فى دار حسان ونادى فى الناس بالأمان وأقيمت له الخطبة فى كثير من بلاد الشام [١] .

لما وصل إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي نبأ خروج أبى الفتوح عليه وانتحاله لقب الخلافة وانحياز حسان بن مفرج بن الجراح والوزير أبى القاسم بن المغربى اليه استاء من ذلك وعول على إعادة نفوذه فى بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبى الفتوح ؛ فكتب إلى أبى الطيب ابن عم أبى الفتوح بتوليته الحرمين وأنفذ له ولشيوخ بنى الحسن مالا لخذلان أبى الفتوح ، كما تعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار عينا ولكل فرد من إخوته سوى الهدايا والثياب التى بعثها إليهم ، فانصرفوا عن أبى الفتوح ودخلوا فى طاعة الحاكم .

كذلك عمل الخليفة الفاطمي على استمالة حسان وأبيه مفرج ابن الجراح وغيرهما بالأموال التى بذلها لهم ، فانحرفوا عن أبى الفتوح . ولما أحس أبو الفتوح بخذلان بنى الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم فى العمل على تقوية نفوذه ، ركب إلى الوزير أبى القاسم ابن المغربي وقال له : « أنت أوقعتنى وأخرجتني من بلدى وجعلتنى فى أيدى هؤلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعوننى بيعا بالدراهم ؛ فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى ، وتسهل طرقى بالعودة إلى الحجاز ، فإنى راض من القسمة بالإياب . » ، ثم ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بخبر أولاده وموقفهم إزاءه وقال له : أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولا تحرجنى » ، فبعث معه جماعة من طيء ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ ،

(١) عبد القادر الانصارى : درر الفرائد المنظمة جـ ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٨

فتلقاه أتباعه وكاتب الحاكم واعتذر إليه ، فقبل عذره وعفا عنه وأعاده الى إمارته بمكة[١] . وعمل أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم ، كما نقش اسمه على السكة[٢] .

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بعد عودته إلى إمارة مكة الخروج على طاعة الفاطميين ، بل احتفظ بسيادتهم فى هذا البلد المقدس ، وصار يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى . فلما توفى هذا الخليفة خطب لابنه الظاهر ، كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧ ه . وظل أبو الفتوح موالياً للفاطميين حتى توفى سنة ٤٣٠ ه ، وخلفه ابنه شكر الذى تمكن من بسط نفوذه على المدينة وأقام الدعوة للمستنصر فى الحرمين واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٤٥٣ ه[٣] .

لم ينجب شكر بن أبى الفتوح الحسنى أولاداً يتولون إمارة مكة من بعده ، فزال بوفاته نفوذ بنى سليمان بمكة وتقلد الحكم فيها رجل ليس من بيت الإمارة . وكان رئيس الهواشم إذ ذاك محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد قد عظم ذكره بين قومه ، فحارب بنى سليمان بمكة سنة ٤٥٤ ه وأوقع بهم الهزيمة ، وأخرجهم من الحجاز ، فساروا إلى اليمن واستقل بإمارة مكة وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى[٤] .

---

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٧٣ ، عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٨

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٨

(٣) دحلان : خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام ص ١٨ ، ابن خلدون : ج ٤ ص ١٠٢

(٤) ابن خلدون : ج ٤ ص ١٢٢

لم يعمل الأمير محمد بن جعفر على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ، فبدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، ثم مالبث أن انحرف عنه وأمر بذكر اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسى [١] . فلما علم بذلك المستنصر عهد إلى على بن محمد الصليحى داعيه باليمن سنة ٤٥٥ هـ بإرسال حملة إلى مكة لاستعادة نفوذه عليها وللقضاء على الدعوة العباسية فيها [٢] . فسار الصليحى إلى مكة وعمل على استمالة أهلها إلى جانبه بما كان معه من الأموال [٣] ، وتعاون مع أمير مكة فى نشر الأمن والطمأنينة فى هذا البلد المقدس ، فطابت قلوب الناس ورخصت الأسعار ، وكسا الصليحى البيت الحرام بثياب بيض [٤] .

على أن الأمير محمد بن جعفر لم يستمر طويلا فى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فإنه لما انقطع ما كان يرد إليه من مصر من الأموال بسبب الشدة العظمى التى حلت بالبلاد المصرية وأصبح فى حاجة إلى المال ، أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصادر أموال أهل مكة وأمر بحذف اسم المستنصر من الخطبة ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى [٥] ، وبعث إلى السلطان ألب أرسلان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٧٠

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ٢١٥

(٣) Bulletin School of Oriental Studies
(Letters of Al-Mustansir Billah, Part VII, 1934 p. 324)

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، أبو المحاسن : جـ ٥ ص ٧٢

(٥) ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان . القسم الثانى . المجلد الاول ورقة ١٢١ ب

السلجوقى حاكم بغداد رسولا سنة ٤٦٢ هـ يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسى وللسلطان بمكة وإسقاط اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة وتركه الأذان بحى على خير العمل ؛ فبعث إليه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار وقال : « إذا فعل أمير المدينة مهنى كذلك أعطيته عشرين ألف دينار وكل سنة خمسة آلاف دينار [1] . » .

على أنه يظهر لنا مما ذكره أبو المحاسن [2] أن أمير مكة رغم قيامه بالدعوة للخليفة العباسى أبقى الأذان بحى على خير العمل وهو يعد من من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة إذ ذاك فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين . فقد أرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٤ هـ الشريف أبا طالب الحسن بمال وخلع وطلب منه هذا الرسول أن يلغى الأذان الشيعى فى مكة ، فناظره الأمير مناظرة طويلة وقال له : « هذا أذان أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال له أخو الشريف أبو طالب : ما صح عنه ، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب روى أنه أذن به فى بعض أسفاره وما أنت وابن عمر ، فأسقطه من الأذان » .

كان الأمير محمد بن جعفر يتطلع إلى ضم المدينة المنورة إلى حوزته ليكون صاحب السيادة على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز . فلما أمن جانب الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى بعد أن أقام لهما الخطبة فى مكة ، وشغل عنه الخليفة الفاطمى بالعمل على استقرار الأمور

---

(١) ابن الأثير : جـ ١٠ ص ٢١ ، أبو المحاسن جـ ٥ ص ٨٤

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٨٩

فى مصر ، أعد جيشاً من الأتراك وزحف به إلى المدينة ، فتغلب على بنى مهنى من بنى الحسين الذين كانت إليهم الرياسة بها وأخرجهم منها وأزال بذلك إمارتهم بالمدينة وجمع بين الحرمين[١] .

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد بن جعفر كان يرمى من وراء انحيازه إلى الخليفة العباسى أو الخليفة الفاطمى العمل على توطيد سلطانه فى بلاد الحجاز ، فيقيم الدعوة للخليفة الذى يمده بالأموال ؛ لذلك نراه حين توفى الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ وانقطع ما كان يصل إليه من المال قطع الخطبة للعباسيين وأقامها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى[٢] . فلما أرسل إليه المقتدى بأمر الله العباسى الأموال أحلّ اسمه فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى وظلت الخطبة تقام للعباسيين فى مكة والمدينة إلى أن توفى الخليفة المقتدى سنة ٤٨٧ هـ[٣] .

لم يعمل محمد بن جعفر أمير مكة طيلة عهد إمارته على تنظيم الأمور فى الأراضى المقدسة وإقرار الأمن بها على الرغم من المساعدات المالية التى كانت ترد إليه من الخليفة العباسى أحيانا ومن الخليفة الفاطمى أحياناً أخرى ، بل أساء السيرة فيها وأصبح الحجاج فى أواخر أيامه غير آمنين على أنفسهم[٤] .

كذلك لم يبدُ من هذا الأمير ما يشعر برغبته فى الاستقلال عن

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٩٧
(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ١٠٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠
(٤) ابن الأثير : ج ١٠ ص ٨٣

الخلافة العباسية أو الفاطمية ، بل دان لكل منها بالطاعة فى فترات متقاربة حتى وصفه أبو المحاسن[(١)] بأنه كان « متلونا تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين (الفاطميين) » .

وقد ظفر العباسيون بحظ وافر من السيادة على مكة فى عهد إمارة محمد بن جعفر بخلاف الفاطميين الذين شغلوا إذ ذاك بالعمل على توطيد سلطتهم فى مصر عن الاحتفاظ بسيادتهم فى الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز ، وبذلك ظلت الدعوة العباسية قائمة فى مكة حتى توفى الأمير محمد بن جعفر سنة ٤٨٧ هـ ، وخلفه ابنه الأمير قاسم الذى حذا حذو أبيه فى إقامة الخطبة للعباسيين، وأرسل إليه الخليفة المستظهر وابنه المسترشد العباسى الخلع والأموال[(٢)] .

لم تنعم مكة فى عهد الأمير قاسم بالهدوء والاستقرار ، بل كانت الأحوال فيها مضطربة طوال المدة التى قضاها أميراً عليها وتبلغ ثلاثين سنة[(٣)] مما يثبت لنا عجز هذا الأمير عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شئون إمارته .

لما توفي الأمير قاسم بن محمد بن جعفر الحسنى سنة ٥١٨ هـ خلفه ابنه فليته ؛ فافتتح عهده بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد وعمل على نشر العدل بين أهالى إمارته مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم ؛ فأثنوا عليه وتمتعوا فى عهده بالرخاء والطمأنينة ، كما حرص هذا الأمير

(١) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ١٤٠

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢٠٥

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ١٠٤

على إظهار ولائه للخليفة العباسى المسترشد حتى توفى سنة ٥٢٧ هـ ، وولى إمارة مكة من بعده ابنه هاشم[١] ، فلم يعمل على استمرار ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة ؛ بل أقام الخطبة للخليفة الحافظ الفاطمى ، مما أثار السيدة الحرة الصليحية صاحبة اليمن ـ وكانت إذ ذاك تقيم الدعوة للامام الطيب بن الخليفة الآمر الفاطمى ـ ولم تعترف بالخلافة الحافظ الذى لم يكن يتمتع بصفة الإمامة التى يجب توافرها فى الخلفاء الفاطميين[٢]. فأرسلت إلى هاشم أمير مكة تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة للحافظ ، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ٥٣٢ هـ ، فكفاه الله شرها[٣].

على أن الدعوة لبنى العباس لم تقطع نهائياً فى عهد الأمير هاشم ، بل أقيمت فى أيامه الخطبة للخليفة المقتفى ، كما أن ابنه قاسم الذى آلت إليه إمارة مكة سنة ٥٤٩ هـ حرص على ذكر اسم الخليفة المستنجد بالله العباسى فى الخطبة وحاول فى نفس الوقت التقرب إلى الخلافة الفاطمية فى مصر ، فأوفد الشاعر عمارة اليمنى برسالة الى القاهرة سنة ٥٥٠ هـ —

(١) راجع ما ورد عن ولاة مكة من الهواشم العلويين فى :

(Zambaur, Manuel de Généslogie et de
Chronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21

(٢) كان الخليفة الآمر الفاطمى قد أنجب ولداً سماه أبا القاسم الطيب وجعله ولى عهده ، فلما قتل هذا الخليفة بعد ذلك ببضعة أشهر سنة ٥٢٤ هـ أخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر أمر الإمام الطيب ، وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلا لحمل منتظر ، فلما وضعت إحدى نساء الآمر بنتا استقرت الخلافة للأمير عبد المجيد وتلقب بالحافظ .

ابن ميسر : أخبار مصر ص٧٢ ، ٧٤ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٩

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٠٤

وكان الخليفة الفاطمى إذ ذاك الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك ، فأدى عمارة الرسالة ونظم قصيدة فى مدح الخليفة والوزير ، نوه فيها بقدومه سفيرا من مكة المكرمة إلى القاهرة ، ومن هذه القصيدة ننقل الأبيات الآتية [١] :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم

قربن بعد مزار العز من نظرى ... حتى رأيت إمام العصر من أمم

ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم

حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم

لم يمكث عمارة اليمنى طويلا فى مصر بعد أن تلقاه كل من الخليفة والوزير الفاطمى بالعطف والقبول ، فسرعان ما عاد إلى مكة ومنها توجه إلى زبيد [٢] فى صفر سنة ٥٥١ هـ ثم رحل منها إلى بلاد الحجاز حيث أدى فريضة الحج وأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى إلى الملك الصالح طلائع ابن زريك يعتذر فيها عن الأحداث التى ارتكبها جنده مع حجاج مصر والشام من تعديهم عليهم وأخذهم أموالا منهم ، فقدم عمارة للمرة الثانية إلى القاهرة حاملا رسالة أمير الحرمين واتخذ مصر موطنا له [٣] ، وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمى فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد [٤] .

على أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

(٢) زبيد : مدينة من متهائم اليمن . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٩

(٣) عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٣١ ، ٤١ — ٤٢ .

(٤) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر (حاشية رقم ١ ص ١٧٤) .

الفاطمى الفائز ووزيره طلائع بن رزيك وإن دلت على حرص هذا الأمير على اكتساب رضاء الخلافة الفاطمية . فإنهما لم يؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمى محل النفوذ العباسى ؛ فقد ظلت الخطبة تقام فى الحرمين للخليفة المستنجد بالله العباسى حتى توفى الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦ هـ وولى بعده الأمير عيسى بن فليته الذى زالت فى عهـــده دولة الفاطميين فى مصر [١] .

ومما لاشك فيه أن عدم استقرار الأمور فى مصر في العصر الفاطمى الثانى الذي تجلى فيه ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع الخلافة العباسية فى ذلك الوقت رغم ما كانت تعانيه من جراء ازدياد نفوذ السلاجقة على نشر نفوذهم فى كل من مكة والمدينة .

على أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم فى العصر الفاطمي الثانى لم ينصرفوا انصرافا تاما عن نشر الدعوة لهم فى بلاد الحجاز ، بل إنهم رغم انكماش دولتهم فى هذا العصر حتى لم يبق فى حوزتهم غير مصر ، فإنهم احتفظوا ببعض النفوذ فى الجزيرة العربية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدعوة الشيعية التى استمرت دون توقف على يد الدعاة الفاطميين [٢] .

وعلى الرغم من أن ولاة مكة والمدينة أقاموا فى فترات مختلفة الدعوة لبنى العباس ، فإنهم لم ينحازوا إلى الخلفاء العباسيين فى مناهضة الخلافة الفاطمية ، بل حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين كلما أمكنتهم الفرص وما ذلك إلا بتأثير الدعوة الشيعية التى بذل الدعاة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages pp 117 - 118, 123.

الفاطميون فى نشرها عناية كبيرة ، كما أن الخلفاء الفاطميين من ناحيتهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم في نشر الأمن والطمأنينة فى الأراضى المقدسة بالحجاز لتيسير سبل المعيشة على أهلها بما كانوا يرسلونه إليهم من الحبوب والأموال . لذلك لا نعجب إذا علمنا أن إقامة الخطبة للخلفاء الفاطميين لم تلق اعتراضا من هؤلاء الأهالى الذين عرفوا بميلهم إلى المذهب السنى ، كما أن أمراءهم احتفظوا فى كل من مكة والمدينة بكثير من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة فى مصر فى العصر الفاطمى ، وفضلا عن ذلك فان انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى كان له أثر كبير فى حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين واكتساب رضائهم رغم المحاولات التى بذلها الخلفاء العباسيون لاستمالتهم إليهم وصرفهم عن الخلافة الفاطمية فى مصر .

وعلى الرغم من حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز ، فان التنافس بينهم لتحقيق هذه الغاية لم يقترن بمظاهر العنف ، بل وجه كل منهم اهتمامه الى اقامة الدعوة له فى تلك الأراضى بالطرق السلمية ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن العباسيين والفاطميين رأوا ألا يتخذوا من الأراضى المقدسة بالحجاز ميدانا لاظهار ما بينهم من عداوة وبغضاء .

وقد رأى هؤلاء الخلفاء تحت تأثير الصعوبات التى واجهوها في دولهم الاكتفاء بنشر سلطتهم الدينية فى بلاد الحجاز التى كانت تتمثل فى اقامة الخطبة لهم على منابرها . وكانوا يرجون من وراء تمتعهم بهذه السلطة توطيد أركان خلافتهم واستمالة العالم الاسلامى الى جانبهم بعد أن

أصبح المسلمون ينظرون نظرة إجلال وتقدير الى الخلفاء الذين يحتفظون بسيادتهم على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز .

وكانت سياسة الخلفاء الفاطميين موجهة بصفة خاصة الى بسط سلطانهم على تلك الأراضى والقضاء على نفوذ العباسيين فيها ليثبتوا للعالم الاسلامى شرعية خلافتهم وأحقيتهم — تبعا لذلك — فى رعاية الأراضى المقدسة .

ولا شك أن حرص الفاطميين على نشر نفوذهم فى بلاد الحجاز ونجاحهم فى هذا السبيل وإن جرّ عليهم منافسة العباسيين لهم ، فإنهم جنوا من ورائه احترام العالم الاسلامى وتقديره ، فقد برهنوا على قدرتهم على درء الأخطار عن تلك البـــلاد بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ، ووجهوا اهتمامهم الى العمل على حماية الأراضى المقدسة وتأمين الوافدين اليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم .

ولم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التى تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز ، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفى لسد حاجة أهلها، لذلك رأوا أنه من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب اليهم ماداموا يرعون حقوقهم فى الإمارة ، ويمدونهم بما يحتاجون اليه من الأموال والغلال ؛ غير أنه يؤخذ على هؤلاء الأمراء أنهم كانوا يؤثرون مصلحتهم الخاصة على مصلحة البلاد التى يتولون الإمارة عليها ، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين على السيادة على بلاد الحجاز لاشباع مطامعهم ، وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون إمدادهم بالأموال ، ولا يعنون بإدخال ضروب الاصلاح فى بلادهم مما أدى إلى

إضعاف شأنها وتأخيرها ماديا وعلميا حتى إن المقدسى[1] لما زار بلاد الحجاز فى القرن الرابع الهجرى وصفها بالفقر وقلة العلم[2]، كما أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو لاحظ حين زيارته مكة فى القرن الخامس الهجرى قلة سكانها، وقدر عددهم بألفين، وقال إن فريقا من أهلها اضطروا إلى الرحيل عنها فرارا من المجاعات[3].

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٠٣

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ص ٣١٣

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

أمراء مكة الأشراف[1]

السليمانيون والهواشم

(من منتصف القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجرى)

أبو محمد جعفر بن محمد بن حسين بن محمد	٣٥٦ هـ
عيسى بن أبى محمد جعفر	٣٧٠ هـ
أبو الفتوح الحسن بن أبى محمد جعفر	٣٨٤ هـ
أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن عبد الله بن داود	٤٠١ هـ
أبو الفتوح الحسن (المرة الثانيه)	٤٠٣ هـ
محمد شكر بن أبى الفتوح الحسن	٤٣٠ هـ
حمزة بن وحاش بن أبى الطيب داود	٤٥٣ هـ
أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد (تاج المولى)	٤٦١ هـ
أبو فليته القاسم بن محمد بن جعفر	٤٨٧ هـ
فليته بن القاسم بن محمد بن محمد بن جعفر	٥١٨ هـ
هاشم بن فليته بن القاسم	٥٢٧ هـ
القاسم بن هاشم بن فليته	٥٤٩ هـ
عيسى بن فليته بن القاسم	٥٥٦ هـ
داود بن عيسى بن فليته	٥٧٠ هـ
مكثر بن عيسى بن فليته	٥٧١ هـ
داود بن عيسى (المرة الثانيه)	٥٧٢ هـ

(١) Zambaur, Manuel de Généalogie et de chronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21

الفصل الثانى

السيادة الفاطمية فى بلاد البحرين

كان نفوذ العباسيين فى جزيرة العرب مهددا من ناحية القرامطة[1] الذين نجحوا فى اقتطاع بلاد البحرين حيث كان أبو سعيد الحسن ابن بهرام الجنابى[2] أحد قوادهم يعمل على نشر دعوتهم بهذا الاقليم منذ سنة ٢٨٣ هـ . وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيبا لدى الأهالى وعلى الأخص الأعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام إلى أى حركة ثورية ضد العرب أو غيرهم ما دامت تتيح لهم فرصة للسلب والنهب[3].

---

(١) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحا للوصول إلى ما تصبو إليه ، وقد عرفت بذلك نسبه إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال أنه سمى قرمط لقصر قامته ورجليه .

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٣ ورقة ٥٦

ويرى Ivanow فى كتابه (The Rise of the Fatimids p. 69) أن « كرامته » كلمة معروفة عند أهالى بلاد العراق الجنوبية لم تستعمل فى العربية ومعناها الفلاح أو القروى ثم عربت إلى قرمط ، وأن حمدان بن الأشعث عرف بهذا الاسم وسمى أتباعه باسمه .

(عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصر العباسى الثانى ص ١٥٨)

(٢) الجنابى : نسبة إلى جنابه وهى بلدة على ساحل الخليج الفارسى

(ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٢ — ١٤٣)

(٣) De La cy O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate

وقد تمكن أبو سعيد الجنابى من الاستيلاء على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة الأحساء[١] عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التى أسسها سنة ٢٧٦ هـ . وكان لهذه الدولة شأن كبير فى جزيرة العرب ، فقد استطاعت أن تبسط نفوذها على كثير من أرجائها ، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية فى بيت أبى سعيد يعاونها مجلس يتكون من اثنى عشر عضوا . وكان الحاكم هو القائد الأعلى للجيش وبيده كافة مقاليد الأمور ، وله سلطة مطلقة . وكان العبيد يقومون بفلاحة أراضيها . أما سكانها من العرب فلم يكن لهم عمل سوى الخدمة فى الجيش[٢] .

وقد وضع أبو سعيد نظاما حربيا دقيقا يستطيع بمقتضاه إعداد جيش قوى من رعاياه ، فصار يجمع الأطفال فى دور خاصة وعين لهم قوما يشرفون على مصالحهم وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، وأخذ يدربهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية ، فنشأوا نشأة عسكرية[٣] .

كان أبو سعيد يطمع فى بسط سيادته على جزيرة العرب وسلخها عن الدوله العباسية . وقد أثارت مطامعه مخاوف الخليفة العباسى المعتضد فأرسل إليه جيشا بقيادة العباس بن عمرو الغنوى بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين سنة ٢٨٩ هـ ، فلقى هذا الجيش هزيمة فادحة ووقع العباس

(١) عرفت بهذا الاسم لما فيها من أحساء المياه فى الرمال ومراعى الابل (ابن خلدون : ج ٤ ص ٩١)

(٢) Encyclopaedia of Religion & Ethics, Vol III p. 225

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٦

فى الأسر ، وما لبث أن أطلق أبو سعيد سراحه وطلب منه أن يبلغ المعتضد هذه الرساله ، ومما جاء فيها : « هذا بلد خارج عن يدك غلبت عليه وقت به وكان فى من الفضل ما آخذ به غيره فما عرضت لما كان فى يدك ولا هممت به ولا أخفت لك سبيلا ، ولا نلت أحدا من رعيتك بسوء ، فتوجيهك إلىَّ الجيوش لأى سبب ؟ اعلم أنى لاأخرج عن هذا البلد ولا توصل إليه ، وفى هذه العصابه التى معى روح ، فاكفنى نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة ، ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر [1] .

فلما وقف المعتضد على ماتضمنه حديث أبى سعيد قال : « صدق ماأخذ شيئا كان فى أيدينا » ثم أطرق مفكرا وقال : « كذب عدو الله الكافر ، المسلمون رعيتى حيث كانوا من بلاد الله ، والله لئن طال بى العمر لأشخص بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى ، ولأوجهن إليه جيشا كثيفا فإن هزمه وجهت جيشا ، فإن هزمه خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه حتى يحكم الله بينى وبينه » .

يتضح لنا من حديث الخليفة المعتضد أنه مدرك حقيقة الحال فى الدولة العباسية وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين خرجت عن سلطانه ، وأن واجبه كخليفة يحتم عليه أن يظل نفوذه سائدا فى جميع البلاد الاسلامية . وقد بلغ من حنق المعتضد على أبى سعيد ورغبته فى القضاء عليه انه كان يذكره خلال مرضه ويتلهف ويقول : « حسرةً فى نفسى ، كنت أحب أن أبلغها قبل موتى ، والله لقـد كنت وضعت

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٢١٨

عند نفسى أن أركب ثم أخرج نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفى إلا ضربت عنقه ، وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة [١] . »

استطاع أبو سعيد بإقراره النظام فى بلاد البحرين وتدريبه أهلها على الأعمال الحربية أن يقيم دولة موطدة الأركان فيها ، امتد نفوذها على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين والطائف [٢] ، ولو طالت حياته لتيسر له مد سلطانه على جزيرة العرب بأكملها ، لكنه اغتيل سنة ٣٠٢ هـ على يد خادم له كان قد أخذه من الجيش العباسى ، فخلفه ابنه سعيد الذى ظل يدبر أمور الدولة حتى ثار عليه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان وقتله وتقلد زمام الحكم فى دولة القرامطة ، ثم جاءه كتاب بتوليته من عبيد الله المهدى مما يثبت لنا ولاء القرامطة فى بلاد البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب . وقد ترتب على ذلك قيام العلاقات الودية بين القرامطة والفاطميين واتحادهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين ، فطلب أبو القاسم بن المهدى سنة ٣٠٦ هـ من أبى طاهر أن يحضر إلى مصر على رأس حملة ليعاونه على فتحها لكن الجيش العباسى بقيادة مؤنس الخادم مالبث أن أوقع الهزيمة بجيش أبى القاسم قبل أن تصل إليه النجدة من أبى طاهر [٣] .

كان أبو طاهر رجلا طموحا إلى المجد والعظمة ، فقضى السنوات

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٢١٩

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢٧

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٨ — ٨٩

الأولى من حكمه ينظم شئون دولته ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب، كما وجه سياسته إلى تأييد عبيد الله المهدى فى عدائه للعباسيين [١] فعمل على إشغالهم فى المشرق بحملاته التى وجهها الى بلادهم حتى يتيح للمهدى توطيد نفوذه فى المغرب ؛ فزحف على البصرة والكوفة وبعد أن غنم منها مغانم كثيرة عاد الى هجر [٢] ، وفى سنة ٣١٦هـ تقدم أبو طاهر إلى بغداد وكادت تقع فى يده لولا دهاء مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر الذى بعث بزواريق ملأى بفاكهة مسموقة ، فلما أكل منها جند القرامطة مات منهم عدد كبير وارتد جيش أبى طاهر بعد أن تكبد خسائر فادحة [٣]. لكن هذه الهزيمة لم تفت فى عضده ، فقام فى العام التالى بحملة جريئة اضطرب من أجلها العالم الاسلامى ، ذلك أنه أغار على مكة فى ذى الحجة سنة ٣١٧هـ (يناير ٩٣٠م) فى عدد قليل ، إذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل ، ونهب هو وأصحابه الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود ، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة ، وأقام الخطبة فى مكة لعبيد الله المهدى بدلا من الخليفة العباسى المقتدر ثم عاد إلى إلى الاحساء حاملا معه الحجر الأسود [٤] .

---

(١) حسن إبراهيم : الاسلام السياسى ج ٣ ص ٢٣٩

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٤٥ و ٤٩

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٢

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٨١ و عبد القادر الانصارى : درر الفرائد المنظمة ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦

لم يقم أبو طاهر بهذه الفعلة الشنعاء — كما زعم أوليرى[١] — بناء على تعاليم سرية أرسلت إليه من القيروان الغرض منها الانتقام من أهل مكة لأنهم لم يخطبوا لعبيد الله المهدى ، ودليلنا على ذلك أن اهتمام هذا الخليفة بإقامة الخطبة له لم يتضح إلا بعد أن فتح أبو طاهر مكة ، كما أن عبيد الله المهدى أظهر استياءه من الأحداث التى ارتكبها أبو طاهر فى هذا البلد المقدس و كتب اليه ما نصه[٢] « والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر . . . وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وفعل فى يومه ما عمل فيه حساب غده . »[٣] ، فبعث إليه أبوطاهر ردا على كتابه وعده فيه بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام[٤] .

لم يكتف أبوطاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمى ، بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣ھ إتاوة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم[٥] ؛ وبذلك أصبحت

---

(١) A Short History of the Fatimid Khalifate . p86

(٢) عبد القادر الانصارى : درر الفرائد المنظمة جـ١ ص ١٩٦

(٣) يرى أوليرى فى كتابه A Short History of the Fatimid Khalifate p. 85 أن عبيد الله المهدى أرسل هذا الخطاب لأبى طاهر لينفى عن نفسه أية مسئولية من جراء استحواذ القرامطة على الحجر الأسود وليظهر بمظهر المدافع عن شعائر الاسلام حتى يكتسب تقدير العالم الاسلامى .

(٤) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٩

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٤

الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى بلاد الحجاز . ولا شك أن ظهورها بهذا المظهر يضعف هيبتها أمام العالم الاسلامى وهو ما كان يرجوه ويعمل من أجله أبو طاهر ليمهد السبيل أمام أنصاره الفاطميين ، ولا غرو فقد أعلن فى إحدى قصائده ولاءه للمهدى وأنه عوّل على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين [1] .

أغركم منى رجـــوعى إلى هجر ... فعما قليـل سوف يأتيـكم الخبر
إذا طلع المريخ من أرض بابل ... وقارنه كيْوان فالحــذر الحذر
فمن مُبْلِغٌ أهل العراق رساله ... بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر

ومنها :

فيـاويلهم من وقعة بعد وقعة ... تساقون سوق الشاء للذبح والبقر
سأصرف خيلى نحو مصر وبرقة ... إلى قير وان الترك والروم والخزر

ومنها :

أكـيلهم بالسيف حتى أبيدهم ... فلا أُبْقِ منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداع للمهدى لاشـك غيره ... أنا الصارم الضرغام والفارس الذكر [2]

* * *

حرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى على الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع الفاطميين ببلاد المغرب ، كما سمحوا لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم ، ذلك أنه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ

(١) حسن ابراهيم : الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٣٣٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٢٥ — ٢٢٦

عارض بعض رجال دولته فى تولية أخيه الأكبر أحمد بن الحسن - وكان أبو طاهر قد أوصى بأن يخلفه فى الحكم - ومالوا إلى تولية سابور بن أبى طاهر وكاتبوا الخليفة الفاطمى القائم فى ذلك ؛ فجاءهم كتابه بولاية أحمد وأن يكون سابور ولى عهده [1] ؛ فنفذت رغبته وتقلد أحمد زمام الحكم فى دولة القرامطة ببلاد البحرين وتلقب بأبى المنصور وحذا حذو أخيه فى ولائه للفاطميين ؛ فأعاد الحجر الأسود من الأحساء إلى مكانه بالكعبة سنة ٣٣٩ هـ إجابة لطلب المنصور الفاطمى بعد أن ذهبت مجهودات الخلافة العباسية مع أبى طاهر بشأن استرداده هباء ، فقد رفض رده مقابل خمسين ألف دينار من الذهب [2] ؛ وفي هذا دليل واضح على مدى خضوع القرامطة فى بلاد البحرين لسلطان الفاطميين .

ومما لاشك فيه أن قيام دولة القرامطة فى بلاد البحرين أثار فى وجه الخلافة العباسية كثيرا من المتاعب والمشاكل بجانب ما كانت تعانيه من إزدياد نفوذ الأتراك واستبداد البويهيين بالسلطة فى بغداد . وقد أدى انشغالها بصد غارات القرامطة عن أراضيها إلى إزدياد قوة الفاطميين فى بلاد المغرب ، كما مهد السبيل لفتحهم مصر ، فقد كانت غارات قرامطة البحرين على أراضى الدولة العباسية بالمشرق تتفق دائما مع الحملات التى وجهها عبيد الله المهدى إلى مصر [1] .

---

(١) ذكر De Goeje فى كتابه
Memoire sur Les Carmathes du Bahrain. p146
أن المنصور بن القائم هو الذى أصدر قرار تعيين أحمد بن الحسن بدلا من سابور

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) De Goeje. Mémoire sur Les cermathes du Bahrain et Les Fatimides p. 69.

وكان لاتحاد القرامطة مع الفاطميين فى نشر آراء المذهب الاسماعيلى أكبر الأثر فى صعود نجم العلويين فى القرن الرابع الهجرى ، على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف ؛ فبسط الفاطميون الذين يمثلون الخلافة العلوية سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من أرجاء جزيرة العرب. وكانت كل هذه البلاد تدين بالطاعة للعباسيين .

لم تتمتع دولة القرامطة فى بلاد البحرين بالهدوء والاستقرار فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فقد حدث نزاع بين أفراد أسرة أبى طاهر على العرش ، فقبض سابور بن أبى طاهر على عمه أبى منصور سنة ٣٥٨ هـ الذى كان إذ ذاك يلى الحكم فى دولة القرامطة ؛ غير أنه مالبث أن خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى إخوته وأشياعهم إلى جزيرة أوال[١] ، وظلت الفتن رغم ذلك قائمة فى بلاد البحرين ، فتوفى أبو منصور مسموما سنه ٣٥٩هـ بتدبير من شيعة ابن أخيه سابور، وخلفه ابنه الحسن بن أحمد ويلقب بالأعصم[٢] .

عول الحسن بن أحمد على منبط الأمور فى بلاده ؛ فنفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر إلى جزيرة أوال حتى بلغ ما أجتمع بها منهم نحو من ثلثمائة ، كما وجه اهتمامه إلى مد نفوذ دولته ؛ فأغار على بلاد الشام وأرغم الاخشيديين فى دمشق على دفع إتاوة سنوية له[٣] .

على أن الحسن بن أحمد اتبع سياسية طائشة إزاء الفاطميين ، فعمل

---

(١) جزيرة بناحية بلاد البحرين : ياقوت : معجم البلدان . جـ ١ ص ٣٦٥

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٠

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٠

على مسالمة الخليفة العباسى فى بغداد الذى أمده بالمال والسلاح لمعاونته على محاربة الفاطميين ، كما لم يعترض أثناء وجوده بمكة على إقامة الخطبة المطيع العباسى مما يدلنا على انحرافه عن الفاطميين[١] . وقد كلفته هذه السياسة الجديدة ثمنا غاليا ؛ فبعد أن كان أسلافه من أمراء القرامطة يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الفاطميين فى بلاد المغرب ، انقلب إلى محارب لهم ، بل راغب رغبة أكيدة فى القضاء عليهم ؛ ذلك أنه بعد أن استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى على دمشق طالب الحسن بن أحمد بالضريبة التى كان يدفعها له الاخشيديون ؛ فرفض الفاطميون أداءها إليه ، ومن ثم ناصبهم العداء[٢] . ويعتقد جاستون فييت[٣] أن قطع الإتاوة كان عذرا وهميا لقطع العلاقات بين القرامطة والفاطميين ، ويقول إنه من المحتمل أن يكون ذلك راجع إلى أن الفاطميين الذين ملكوا بلاداً غنية أرادوا القضاء على القرامطة حتى لا يذيعون بين الناس أن الفاطميين من نسلهم وحتى لا يطمعون فى سلب ما استحوذ عليه الفاطميون .

رأى الفاطميون بعد أن تبدلت صلة المودة بينهم وبين قرامطة بلاد البحرين بتأثير السياسة التى سار عليها الحسن بن أحمد أن يعملوا على إضعاف شأنهم بإثارة النزاع بينهم ؛ فأرسل المعز لدين الله الفاطمى إلى أتباع أبي طاهر وبنيه الذين أبعدوا إلى جزيرة أوال يخبرهم بأحقية ولد أبى طاهر فى حكم

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ١٧٨

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٠

(٣) Htistoire de La Nation Egyptienne p. 101-102

القرامطة ، فلما علم بذلك الحسن بن أحمد أمر بحذف اسم المعز من الخطبة في بلاده وإقامة الدعوة للمطيع العباسي ولبس السواد شعار العباسيين ، ثم زحف على دمشق سنة ٣٦٠ هـ ودارت بينه وبين جند الفاطميين عدة معارك انتهى الأمر فيها باستيلائه على تلك المدينة(١) . ولم تلبث جيوش الحسن بن أحمد أن زحفت إلى مصر ، وهددت مدينة القاهرة التي حصنها جوهر الصقلي بخندق عظيم حفره حولها .

ولما دارت رحى الحرب أمام القاهرة أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه المؤرخين وأثارت دهشتهم(٢) ؛ فتمكنت من الوقوف في وجه القرامطة وتقهقر الحسن ابن أحمد بجنده ورحل الى الأحساء(٣) سنة ٣٦٢ هـ .

بيد أن هذه الهزيمة التي لحقت القرامطة لم تكن خاتمة النضال بينهم وبين الفاطميين ؛ فقد لبثوا قوة يخشى بأسها ؛ ذلك أن الحسن بن أحمد أخذ في التأهب للقتال من جديد ، فلما نزل المعز لدين الله الفاطمي بالقاهرة بعد قدومه من المغرب كتب إليه يذكره بولاء أسلافه وآبائه للأئمة الفاطميين ، وأن دعوة القرامطة كانت إليه وإلى آبائه من قبل(٤) ؛ فقال : أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة ، وبعمل أبي طاهر قدوة ! أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ! أكنت غائبا عن

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٠

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages P.p. 107

(٣) المقريزي : إتعاظ الحنفا ص ٢٥٠

(٤) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢١١

ديارهم وما كان من آثارهم ! ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولى بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد ، يفيض إليهم موادنا ، وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا ، منحة منا واسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت إليهم وفود الآفاق وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد وأن يكونوا لبنى العباس أضداد ، فبعثت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجبة والعدد المهذبة والعساكر الموكبة فلم يلقهم جيش إلا كسروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحاظنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل : (إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) (وإن جندنا لهم الغالبون) .

وقد نوه المعز فى خطابه أيضا بانتشار الدعوة الفاطمية فى كثير من أرجاء العالم الاسلامى ، فقال : « . . ومع هذا فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون ، وهو قول الله عز وجل : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .) ، وأنت عارف بذلك ؛ فيأيها الناكث الحانث ما الذى أرداك وصدك ؟ أشيء شككت فيه أم أمر استربت به ، أم كنت خليا من الحكمة وخارجا عن الكلمة ، فأزالك وصدك ، وعن السبيل ردك ؛ إن هى إلا فتنة لكم ومتاع الى حين ؛ وأيم الله لقد

كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك ، والأفضل لمجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك ، والقفو لآثارهم وإن عميت لديك لتجرى على سننهم ..»

كذلك أظهر المعز فى كتابه استياءه من ميل الحسن بن أحمد الى اقامة دعوة بنى العباس ، فقال : « ... لم تقنع فى انتكاسك وترديتك فى ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، وعصيانك مولاك وجحدك ولاك ، حتى انقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة درست ودولة قد طمست ؛ إنك لمن الغاوين ، وإنك لفى ضلال مبين ، أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؟ ... أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ، وآخر المتاريس فى الناس ، أما تراهم (كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية .) ، خُتِم والله الحساب ، وطوى الكتاب ، وعاد الأمر الى أهله ، والزمان الى أوله ، وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من وطنها ، وجيء بالملائكة والنبيين ، وخسر هنالك المبطلون ، هنالك الولاية لله الحق ، والملك لله الواحد القهار ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ...»

وفى نهاية الكتاب هدد المعز الحسن بن أحمد بسوء العاقبة إن لم يسلم نفسه ؛ فقال : « ونحن معرضون ثلاث خصال ـ والرابعة أردى لك وأشق لبالك وما أحسبك تحصل إلا عليها ـ فاختر : إما فدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من

رجاله ورجال سعادة بن حيّان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير — وهي أسهل مايرد عليك ـ وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ـ ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ـ ، وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريكم على إحدى ثلاث : إما قصاص ، وإما منا بعد ، وإما فداء ، فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك ، وإن أبيت إلا فعل اللعين : (فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) ، أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، وقيل اخسئوا ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فلا سماء تظلك ، ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنك ، ولا علَم يسترك ولا فئة تنصرك[1] ...

لم يكتف المعز بإرسال هذا الكتاب إلى الحسن بن أحمد ، بل أتبعه بعزله عن إمارة القرامطة ، كما بعث إلى بني أبي طاهر يحرضهم على الخروج عليه ويؤيد أحقيتهم في الولاية على بلاد البحرين ، فخرجوا من جزيرة أوال ونهبوا الأحساء في غيبة الحسن بن أحمد ، غير أن الخليفة العباسي الطائع مالبث أن كتب إليهم بالتزام الطاعة وأن يصالحوا ابن عمهم (الحسن بن أحمد) ويقيموا بجزيرة أوال وبعث من عقد الصلح بينهم[2] .

لم يكترث الحسن بن أحمد بتهديد المعز له وعزله إياه ، وأساء في

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ — ٢٦٥

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٠

رده ، فكتب اليه « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام »[1] . ثم زحف على مصر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) وتوغلت جنوده فى الأراضى المصرية ، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة ، لكنه عجز للمرة الثانية عن الاستيلاء على تلك المدينة وتقهقر بجيوشه إلى بلاد البحرين ونجح الفاطميون فى استرداد بلاد الشام .

على أن النفوذ الفاطمى لم يستقر طويلا فى تلك البلاد فقد استطاع أفتكين التركى الاستيلاء على دمشق سنة ٣٦٥ هـ ، وكتب إلى الحسن بن أحمد يستنجده ، فسار اليه من الأحساء وتمكنت قواتهما من احراز بعض الانتصارات فى بلاد الشام ، فلما بلغ ذلك العزيز بالله الفاطمى زحف من القاهرة على رأس حملة كبيرة وأوقع بقوات أفتكين والقرامطة الهزيمة وبهذا النصر الذى أحرزه الفاطميون توطدت أقدامهم فى بلاد الشام ، وجلا عنها القرامطة إلى بلادهم .

قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن ابن أحمد سنة ٣٦٦ هـ كما أنهم أنكروا سياسته العدائية ازاء الفاطميين ومبايعته الخليفة العباسى ، وعمل أتباع أبى طاهر على اقصاء ولد أبي سعيد عن الامارة ، ثم استقر الرأى على أن يتولى الحكم فى بلاد البحرين اثنان من سادتهم وهما جعفر واسحق[2] ؛ فسارا على السياسة التى اتبعها

---

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢١١

(١) ذكر (ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٨) أنه تولى أمر القرامطة بعد وفاة الحسن ابن أحمد ستة نفر اشتركوا جميعا فى الحكم وسموا السادة

أمراء القرامطة قبل تولية الحسن بن أحمد من اقامة الدعوة الفاطمية ومحاربة بنى العباس [(١)].

عاد قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد إلى القيام بحملات على أراضى الدولة العباسية ؛ فأغاروا على الكوفة سنة ٣٧٥ هـ وأدى ذلك إلى انزعاج أهلها لما عرف به القرامطة من شدة البأس وقوة الشكيمة حتى هابهم الناس ؛ فبعث إليهم صمصام الدولة سلطان بنى بويه جيشا أوقع بهم الهزيمة على نهر الفرات وتعقبهم إلى القادسية [(٢)] ؛ وبذلك تيسر للبويهيين إخراجهم نهائيا من بلاد العراق .

ضعف أمر القرامطة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى حتى لم يبق لهم إلا ولاية صغيرة على الشاطىء الشرقى للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ، ولكن كان لها على باب البصرة ديوان صغير لأخذ الضرائب [(٣)] .

كذلك أدى التنافس على الرياسة بين كل جعفر واسحق إلى التعجيل باضمحلال دولتهم فى بلاد البحرين وزوالها فى نهاية القرن الرابع الهجرى يقول ابن خلدون [(٤)] : « وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ هـ عليهم وملك الأحساء من

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩١

(٢) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٤ — ١٥

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٢٣ ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٥٦

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٩١

أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه » .

كان يقيم ببلاد البحرين بجانب القرامطة كثير من قبائل العرب ومن أشهرهم بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم ، وكثيراً ما استنجد بهم القرامطة على أعدائهم واستعانوا بهم فى حروبهم . وقد حدثت بينهم وبين هؤلاء العرب عدة منازعات أدت فى بعض الأحيان إلى اشتعال نار الحرب بين الفريقين .

كان بنو ثعلب أكثر العرب المقيمين ببلاد البحرين عدداً وأظهرهم عزة ؛ فاستولى زعيمهم الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى على تلك البلاد بعد أن انحل أمر القرامطة وانقرض الملك من أسرة الجنابى ، لكن الأمور لم تستقر فى بلاد البحرين بسبب المنازعات التى قامت بين القبائل العربية ، فقد استعان بنو ثعلبة ببنى عقيل على بنى سليم وطردوهم من تلك البلاد ، فساروا إلى مصر ومنها رحلوا إلى افريقية ثم حدث خلاف بين بنى ثعلب وبنى عقيل انتهى الأمر فيه بخروج بنى عقيل إلى العراق فأقاموا لهم دولة بإقليم الجزيرة .

ولم تقف أطماع الأصفر زعيم بنى ثعلب عند حد بسط سلطانه على بلاد البحرين ، بل سرعان ما تغلب على الجزيرة والموصل وهزم نصير الدولة بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر ، كذلك نجح الأصفر فى جعل الحكم وراثيا فى بنيه من بعده ببلاد البحرين ؛ فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا وخلفهم فى حكم هذه البلاد بنو عقيل

الذين عادوا إلى ديارهم بعد أن تغلب عليهم السلاجقة فى الجزيرة [١] .
وقد ذكر أبو سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب أنه سأل أهل البحرين حين قابلهم بالمدينة المنورة سنة ٦٥١ هـ عن بلادهم ، فقالوا : الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عُقَيْل ، أما بنو ثعلب فأصبحوا من جملة رعاياهم .

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩١ — ٩٢

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية فى اليمامة وعُمان

١ – اليمامة : كانت اليمامة [1] من بين ولايات جزيرة العرب التى تدين بالطاعة للعباسيين حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حيث استولى عليها فى أيام المستعين بالله العباسى محمد الأُخَيْضر بن يوسف بن ابراهيم ابن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واتخذ الخضرمة حاضرة له [2] ، فأقام باليمامة دولة علوية عرفت باسم دولة بنى الأخيضر ، استقل بها عن الخلافة العباسية التى بدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر عليها منذ ذلك الوقت بسبب ازدياد نفوذ الأتراك واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء .

لم يلق محمد الأخيضر عناء كبيراً فى إقامة دولته باليمامة ، واستطاع أن يوطد نفوذه فيها و يجعل الحكم وراثيا في أبنائه من بعده . وكان له من الأولاد محمد وابراهيم وعبد الله ويوسف . ولما توفى خلفه يوسف الذى أشرك معه ابنه إسماعيل فى إدارة شئون اليمامة طيلة حياته ، ثم انفرد اسماعيل بولاية اليمامة بعد وفاة أبيه .

---

(١) يحدها من جهة الشرق بلاد البحرين ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز ، ومن الجنوب نجران ، ومن الشمال نجد والحجاز .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٨

(٢) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٤١

وقد وجه كل من رستم بن الحسين بن حوشب وعلى بن فضل وهما من دعاة الاسماعيلية في اليمن أنظارهما إلى اليمامة بسبب قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها ، واعتقدا أن أهلها سيرحبون بالدعوة الفاطمية ، لذلك بعثا اليها بالدعاة لنشر المذهب الاسماعيلى [١] ، كما بعثا دعاة آخرين لنفس هذا الغرض الى بلاد البحرين والسند والهند ومصر والمغرب [٢] .

لم يزل بنو الأخيضر يتولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة بلاد البحرين فى بسط سلطانهم على جزيرة العرب ، فتغلبوا على اليمامة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، كما أخضعوا مكة وعمان لسلطانهم ، وبذلك زالت دولة بنى الأخيضر [٣] .

على أن نفوذ القرامطة في اليمامة مالبث أن ضعف بعد زوال دولتهم فى بلاد البحرين . ولم يبذل خلفاء بنى العباس أى محاولة لاستعادة سلطانهم عليها ، فاستقل بإدارتها زعماء العرب المقيمين بها وعلى الأخص من قيس عيلان [٤] .

---

(١) عرف بذلك نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . وكان أتباعه يعرفون بالاسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم تنقلت فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق ، ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ثم تنقلت فى بنيه . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠)

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٨

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٨ — ٩٩

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٠

٢ – عمان : كانت عمان من بين الولايات الاسلامية بجزيرة العرب التى تدين بالطاعة للعباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى. وقد تزعم الحكم فيها في عهد الخليفة المعتضد بنو شامة بن لؤى بن غالب ، ففتح محمد بن القاسم الشامى عمان بمعاونة هذا الخليفه ثم وليها من قبله ، وأقام الخطبة فيها لبنى العباس ونجح فى جعل الحكم وراثيا فى أبنائه من بعده . على أن الضعف والانحلال مالبث أن أصاب إمارتهم بسبب الخلاف الذى قام بينهم سنه ٣٠٥ هـ ، فلحق بعضهم بالقرامطة فى بلاد البحرين وظل الاضطراب سائدا فى ولايتهم حتى تغلب عليها سنة ٣١٧ أبو طاهر القرمطى ، وخطب بها لعبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب [١] ، وبذلك دخلت عمان فى حوزة دولة القرامطة ببلادالبحرين وصار ولاتها يعينون من قبلها .

لم يكن نفوذ القرامطة موطدا فى عمان ، فقد استقل بالحكم فيها يوسف بن وجيه وحاول توسيع رقعة إمارته ؛ فسار على رأس حملة بحرية يريد البصرة ، وكاد يستولى عليها لولا ماحل بسفنه من جراء الحريق الذى دبره بعض أعوان بنى البريدى الذين استقلوا بالبصرة والأهواز وواسط فى عهد الخليفة المتقى ، ومضى يوسف بن وجيه صاحب عمان هاربا فى أوائل سنة ٣٣٢ [٢] هـ ولم يتمتع طويلا بالحكم بعد هذه الهزيمة ، فقد ثارفى وجهه مولاه نافع وتغلب عليه ثم تقلد زمام الأمور بدلا منه ، ودخل فى

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٢

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٣٠

طاعة معز الدولة بن بوية وخطب له على المنـــابر وضرب اسمه على الدينار والدرهم.[١]

انتهز القرامطة فرصة عدم استقرار الأمور فى عمان، فتغلبوا عليها سنة ٣٥٤ هـ وهرب نافع منها بعد أن وثب به أهل عمان، لـكنهم لم يستأثروا بالنفوذ فيها؛ فقد استقر رأى أهلها على أن يولوا عليهم عبدالوهاب بن أحمد بن مروان، فولى إمارة عمان بعد أن كان ممتنعا عن تقلدها، واتخذ على بن أحمد كاتبا – وكان يكتب للقرامطة من قبل.

بدأ الأمير عبد الوهاب عمله بمنح الجند أرزاقهم؛ وكانوا طائفتين احداهما من البيض والثانية من الزنج، فلما فرغ كاتبه على بن أحمد من توزيع المرتبات على البيض قال للزنج – وكانوا ستة آلاف رجل – ان الأمير عبد الوهاب أمر لكم بنصف ماوزع على البيض؛ فامتعضوا لذلك وثاروا ضـده، لكنه مالبث أن استمالهم اليه بقوله: « هل لكم أن تبايعونى فأعطيكم مثل سائر الأجناد؟ » فأجابوه الى ذلك وبايعوه، فسواهم فى العطاء مع البيض مما أدى الى تذمر البيض وقيام الحرب بينهم وبين الزنج؛ فلما كانت الغلبة للزنج هدأت الفتنة في عمان واستقر على بن أحمد فى امارتها بعد عزل الأمير عبد الوهاب[٢].

رأى معز الدولة بن بويه أن الفرصة سانحة له للاستيلاء على عمان بعد ما وصل إليه من أنباء الفتن والاضطرابات التى ثارت فيهـا، فسار من واسط إلى الأبلة وهناك أعد حملة بحرية لفتحها سنة ٣٥٥ هـ، وأسند

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٦

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٦ – ١٨٧، ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٤٣-٤٤٤

قيادتها إلى أبى الفتوح محمد بن العباس ، وطلب من عضد الدولة بفارس أن يمده بالعساكر فوافاهم المدد بسيراف[١] ، ثم سارت المراكب حاملة الجند إلى عمان ، فتغلبوا عليها وأقيمت الخطبة فيها لمعز الدولة ، وتولى حكمها أبو الفرج بن العباس نائبا عنه[٢] .

لما توفى معز الدولة غادر عمان إلى بغداد نائبه أبو الفرج بن العباس ، وبعث إلى عضد الدولة يطلب منه أن يتسلمها ، فولى أمرها عمر بن نبهان الطائى وأقام الدعوة لعضد الدولة ، غير أن الزنج ما لبثوا أن تغلبوا على عمان ، وقتلوا ابن نبهان وولوا عليهم رجلا يعرف بابن حلاج ، فلما علم بذلك عضد الدولة أرسل إليهم جيشا بقيادة أبى حرب طغان ودارت بينه وبين الزنج معركة حامية بصحار - قصبة عمان - ، انتهى الأمر فيها باستيلاء أبى حرب على هذه البلدة وانهزام أهلها سنة ٣٦٢ هـ .

على أن نفوذ عضد الدولة لم يتوطد رغم ذلك فى عمان ، فقد اجتمع بجبالها كثير من الخوارج وولوا ورد بن زياد أميرا عليهم ، كما جعلوا حفص بن راشد خليفة لهم ، واشتدت شوكتهم ؛ فبعث إليهم عضد الدولة حملة بقيادة المطهر بن عبد الله الذى تمكن بعد أن نزلت جنوده بأرض عمان من التغلب على الثائرين وأسر كثيرا من رؤسائهم ، وظل يتتبعهم حتى أوقع بهم وقعة أتت على بقاياهم واضطر خليفتهم إلى مغادرة عمان والإقامة ببلاد اليمن ، وبذلك استقرت الأمور لعضد الدولة بعمان

---

(١) سيراف : تقع على ساحل الخليج الفارسى (ياقوت : معجم البلدان)

(٢) ابن خلدون : جـ ٣ ص ٤٢٥ ، جـ ٤ ص ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ٤٥٠

ودانت له بلادها بالطاعة [١] .

كان بنو مكرم من وجوه عمان الذين استعان بهم البويهيون فى إدارة شئون دولتهم ، وتولى بعضهم الإمارة فى عمان وأقاموا الخطبة لبنى العباس . ولما ضعفت دولة بنى بويه ببغداد استبد بنو مكرم بالسلطة فى عمان وتوارثوا الحكم فيها . وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم على ابن ناصر الدولة الحسين بن مكرم الذى ولي الإمارة سنة ٤١٨ هـ واستطاع بحسن إدارته وجوده وكرمه أن يجعل الحكم وراثيا فى أبنائه من بعده [٢] .

ولما توفى الأمير أبو القاسم سنة ٤٢٧ هـ خلفه ابنه أبو الجيش ، فاستغل ضعفه قائد جنده على بن هطال واستأثر بكثير من النفوذ وأوقع الفرقة بينه وبين أخيه المهذب الذى انتهى أمره باعتقاله وقتله ، ثم توفى بعد ذلك بقليل أبو الجيش ؛ فحاول على بن هطال أن يولى أخاه أبا محمد ، فأخفته أمه حتى لا تتيح له فرصة التخلص منه وطلبت إليه أن يتولى بنفسه إمارة عمان ؛ فرحب بذلك ، غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة وصادر التجار واستولى على كثير من أموال الأهالى .

ولما وصل إلى أبى كاليجار سلطان بنى بويه فى العراق ما قام به على ابن هطال من الأعمال التى سببت تذمر أهالى عمان ، عول على إقصائه عن الإمارة ؛ فأمر وزيره العادل أبا منصور أن يكاتب المرتضى الذى كان نائباً

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢١٣ — ٢١٤ ، ابن خلدون : جـ ٤ ص ٤٥٠

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٣

لأبى القاسم بن مكرم بجبال عمان ويطلب إليه محاربة ابن هطال ، كما جهز العساكر من البصرة لمساعدته . فسافر المرتضى إلى عمان وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على أكبر أعمالها ودس لابن هطال من اغتاله ؛ ثم بعث الوزير العادل أبو منصور رسولا من قبله إلى عمان ولى أبا محمد ابن مكرم الامارة سنة ٤٣١[١] هـ .

على أن أسرة بنى مكرم ما لبثت أن ضعفت وزال ملكها بعمان وتولى أبو المظفر بن أبى كاليجار البويهى إمارة هذه البلاد ، لكنه عجز عن إدارة شئونها بنفسه واستأثر بالسلطة خادم له ، وأساء التصرف فى الأموال مما أثار كراهة الأهالى وتذمرهم . ولما وقف ابن راشد – وكان من زعماء الخوارج المقيمين بجبال عمان – على ما وصلت إليه الحال فى البلاد من جراء ضعف الأمير أبى المظفر واستبداد خادمه بالأمور دونه . دعا أتباعه وسار على رأسهم لمحاربة أبى المظفر ، غير أن الهزيمة حلت بابن راشد والخوارج ؛ فعادوا إلى محل إقامتهم ، وأخذ ابن راشد يعد العدة ويحشد الجموع للتخلص من إمارة أبى المظفر . ولما تهيأ لمحاربته سار إليه وأعانه أهل البلاد بسبب كراهتهم للديلم . وبذلك تيسر له الانتصار على أبى المظفر سنة ٤٤٢ هـ ، وقبض على زمام الأمور فى البلاد ، فبدأ حكمه بالعمل على إقامة العدل ، كما أسقط المكوس على جباية عشر ما يرد إلى الأهالى ؛ وأمر بذكر اسمه فى الخطبة وتلقب بالراشد بالله[٢] .

---

(١) ابن الاثير : ج ٩ ص ١٦١ – ١٦٢

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٩٥ ، ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٨٩ – ٤٩٠

لم تستقر الأمور فى عمان بعد أن ولى حكمها الخوارج، كما تفككت عرى وحدتها، فقامت فى بعض بلادها الواقعة على الخليج الفارسى إمارة مستقلة تقلد زمام الحكم فيها زكريا بن عبد الملك الأزدى سنة ٤٤٨ هـ، وكان الخوارج يدينون لأسرته بالطاعة[١]. ومن ذلك يتبين انحلال النفوذ العباسى فى عمان وعجز بنى بويه عن الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الامارة، كما أن السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة فى بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى شغلوا عنها بالعمل على توطيد نفوذهم فى العراق ومد سلطانهم على بلاد المشرق.

كانت الدولة الفاطمية فى مصر ترقب الاضطراب السائد فى عمان وتحرص على الابقاء على دعوتها التى قام دعاتها بنشرها فى هذا القطر منذ أواخر القرن الثالث الهجرى، فلما وصل إلى المستنصر بالله الفاطمى ضعف النفوذ العباسى فى عمان وثورة رجالها ضد الهيئة الحاكمة فيها، بعث إلى المكرم أحمد الذى ولى الملك فى بلاد اليمن بعد وفاة أبيه على ابن محمد الصليحى خطاباً فى ربيع الثانى سنة ٤٦٩ هـ طلب إليه فيه القيام بإدارة شئون ولاية عمان والعمل على استتباب الأمن فيها رغم أنها لا تدخل فى نطاق دولته[٢].

وكانت بلاد اليمن إذ ذاك تبعث إلى عمان والهند بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية، كما أنه كان بهذين القطرين أنصار كثيرون يؤيدون المذهب الاسماعيلى الذى تحرص الدولة الفاطمية على نشره، فلما ورد إلى المستنصر

(١) ابن خلدون: ج ٤ ص ٩٣

(٢) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of Al-Mustansir Billah). 1934, Part VII, p. 322.

عدة خطابات منهم تتضمن وفاة دعاته ورغبتهم فى أن يزود بلادهم بدعاة غيرهم ، بعث إلى المكرم أحمد كتاباً في ربيع الأول سنة ٤٧٦ هـ أخبره بموافقته على تعيين مارزبان بن اسحق داعياً بالهند ، وإسماعيل بن ابراهيم ابن جابر داعياً بعمان ، كما أرسل المستنصر فى أواخر سنة ٤٨١ هـ خطابا إلى السيدة الحرة التى آل اليها الملك ببلاد اليمن أخبرها فيه بموافقته على تعيين أحمد بن مارزبان داعياً بالهند بعد وفاة والده ، وأبدى ارتياحه لاختيارها اسماعيل بن ابراهيم الداعى بعمان ليقوم بمعاونة الداعي أحمد فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد الهند ، ونوّه المستنصر فى خطابه بثقته فى المجهودات التى تقوم بها السيدة الحرة فى سبيل نشر الدعوة له فى كل من بلاد اليمن وعمان والهند[1] .

يتضح لنا مما تقدم إلى أى حد عنيت الخلافة الفاطمية بنشر دعوتها فى عمان ، وكيف أصبح لهذه الدعوة أنصار كثيرون بتلك الولاية . ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت ترمى من وراء بث الدعوة لها بعمان إلى تحقيق سياستها فى بسط سلطانها على أقطار جزيرة العرب ليتيسر لها بذلك إضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها .

---

(١) (B. S. O. S), 1934. Vol. VII Part 2, p. 321, 324

الفصل الرابع

النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن

دخلت بلاد اليمن فى حوزة العباسيين بعد أن انتقلت إليهم الخلافة وصار الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم؛ غير أن الأمور لم تستقر استقرارا تاما فى هذه البلاد. فلما بلغ المأمون اضطراب الأمن فيها وذيوع الدعوة الشيعية بين أهلها، عول على أن يختار لولايتها رجلا يستطيع أن يقضى على عوامل الفساد فيها؛ فأشار عليه الحسن ابن سهل بأن يسند إلى محمد بن ابراهيم الزيادي ولاية اليمن؛ فولاه عليها سنة ٢٠٣ هـ. ولم يمض عام واحد على هذا الوالى حتى اختط مدينة زبيد واتخذها حاضرة له [١] وأخذ منذ ذلك الوقت يوطد نفوذه فى جميع أرجاء بلاد اليمن؛ فدخلت فى طاعته حضرموت والشحر وديار كنده ولحج والتهايم [٢]؛ وما زال نفوذه فى ازدياد حتى أصبح فى مقام الملوك المستقلين لكنه مع ذلك احتفظ بولائه للخلافه العباسية وصار يقيم الخطبة لبنى العباس ويرسل إليهم الخراج والهدايا كل عام [٣].

نجح محمد بن ابراهيم الزيادي فى جعل ولاية اليمن وراثية فى أبنائه، تدين بالطاعة للعباسيين؛ فلما توفى سنة ٢٤٥ هـ خلفه ابنه ابراهيم، ثم

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢١٢

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤

تولى بعده ابنه زياد ، غير أن هذا الوالى لم يمكث طويلا فى الحكم وأعقبه فى ولاية اليمن ابنه ابو الجيش اسحق ، فظل يلى أمورها حتى بلغ الثمانين من عمره .

أخذت الدولة الزيادية فى بلاد اليمن فى الانحلال ، فى أواخر عهد الأمير أبى الجيش إبراهيم ، فخرج بصنعاء أسعد بن أبى يعفر ، وثار بصعدة يحيى بن القاسم الرسى الملقب بالهادى [1] ، وكان يدعو للزيدية ـ أتباع زيد بن على زين العابدين ـ ، ولما عظم نفوذه وكثر أنصاره زحف على صنعاء ، فاستولى عليها من يد أسعد بن يعفر ، غير أن بنى أسعد مالبثوا أن استردوها منه ، فعاد إلى صعدة وأسس فيها دولة بنى الرسى . وهكذا أصبح فى بلاد اليمن ثلاث دويلات : احداهما فى زبيد ، والثانية فى صنعاء ، والثالثة فى صعدة [2] .

كان لضعف الدولة الزيادية أثر كبير فى نجاح الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ، ففى الوقت الذى تفككت فيه عرى وحدة هذه الدولة بعث محمد الحبيب إمام الاسماعيلية بسلمية [3] كلا من على بن الفضل اليمانى

---

(١) ورد نسبه فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٨ على الوجه الآتى : يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى بن ابراهيم طباطبا بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٣ ،

Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p: 242

صعدة : بلدة على ستين فرسخا من صنعاء (القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص٤٢)

(٣) بلدة من أعمال حماه وكانت تعد من أعمال حمص . ياقوت : معجم البلدان .

وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى إلى تلك البلاد لينشرا الدعوة للمهدى من آل محمد . فلما وصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ ،[١] أخذا فى بث دعوتهما ، ثم بني ابن حوشب حصنا بجبل لاعه وأعد جيشا زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر ، كما بعث الدعاة إلى جميع أرجاء اليمن فنشروا الدعوة الاسماعيلية بين أهلها ، وتمكن بمعاونتهم من التغلب على كثير من بلادها[٢] .

لما رأى ابن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن أن دعوته إلى المهدى لقيت قبولا لدى كثير من أهالى بلاد اليمن ، كتب الى محمد الحبيب وابنه عبيد الله بسلمية يخبرهما بما فتح من البلاد ، كما بعث اليهما بالأموال والهدايا ، فسرهما ذلك[٣] .

على أن محمد الحبيب لم يكتف بنجاح تلك الدعوة فى بلاد اليمن ، بل حرص أيضاً على نشرها فى بلاد المغرب ، فأرسل أبا عبد الله الحسين ابن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي الى ابن حوشب وأمره بالدخول فى طاعته والاقتداء بسيرته ، على أن يرحل بعد ذلك الى المغرب لينشر بها الدعوة الاسماعيلية ؛ فقدم أبو عبد الله على ابن حوشب وصار من كبار أصحابه . ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة الداعيين أبى سفيان والحلوانى فى بلاد المغرب ، عهد الى أبى عبد الله الشيعى بالقيام بالدعوة الى المهدى فى تلك البلاد ، فخرج أبو عبد الله الى مكة ، ثم رحل منها قاصدا بلاد المغرب ، وأخذ ينشر بين أهلها الدعوة الاسماعيلية ويتحدث

---

(١) Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p. 225

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٣٠ — ٣١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٦٨

(٣) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ — ٢٨

اليهم عن قرب ظهور المهدى من آل على بن أبى طالب ، وظل أبو عبدالله مواليا للامام محمد الحبيب يرسل اليه رسله وهداياه [١] .

كان محمد الحبيب قد عهد لأبنه عبيد الله بالامامة من بعده وقال له : « انك ستهاجر بعدى هجرة وتلقي محناً شديدة » ، فلما توفى خلفه فى إمامة الاسماعيلية ، فواصل القيام بنشر الدعوة لنفسه ، وبذل الأموال الكثيرة فى سبيل نجاحها .

كان دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن اذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدى ستظهر فى بلادهم ، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الاسماعيلية فى بلاد المغرب ، فكانوا يرجون قدوم المهدى إليهم لاقامة دولته المنشودة . فأرسل كبيرهم أبو عبد الله الشيعى الى عبيد الله وهو بسلمية وفدا من رجال كتامه يدعوه للقدوم الى بلاد المغرب . يقول المقريزى [٢] : « وسير أبو عبد الله الى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له وأنه ينتظره ، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص . »

كان الخليفة المكتفى العباسى فى ذلك الوقت قد وصله خبر ذيوع الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن والمغرب ، فعهد الى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه [٣] ، فخرج عبيد الله هاربا من سلمية بعد مقابلته وفد كتامة ووقوفه على مدى نجاح دعوته فى بلاد المغرب ، وأخبر

(١) ابن الاثير : جـ ٨ ص ١٠ — ١١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٨ — ٦٩ ، ٧٤ — ٧٧
(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ١١
(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٣٢

بعض أتباعه أنه سيقصد اليمن . يقول جعفر الحاجب الذى صحبه عند رحيله من سلمية « وأمرنا المهدى بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه وأظهر لنا أنه يريد اليمن [١] . »

على أن عبيد الله المهدى لم يكن راغبا رغبة أكيدة في إقامة دولته ببلاد اليمن بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى ؛ يؤيد ذلك ما قاله ابن الأثير [٢] : « وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى ، فطلب وهرب هو وولده أبو القاسم نزار ، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب » ؛ وفضلا عن ذلك فإن عبيد الله المهدى كان حريصا على تحقيق رغبة أبيه فى إقامة دولتـه بالمغرب ؛ فقال له حين بلغه نجاح ابن حوشب فى نشر الدعوة إلى المهدى فى اليمن : « هذه دولتك قد قامت ، لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب [٣] » .

ومما لاشك فيه أن عبيد الله المهدى كان يحرص ألا يقع فى قبضة العباسيين الذين بثوا رجالهم لاستقصاء أخباره ، لذلك عول على إخفاء حقيقة الجهة التى سيقصدها ، وقال لبعض أتباعه إنه سيذهب إلى اليمن رغبة منـه فى ألا تصل أخبار هربه إلى العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يبذلون قصارى جهدهم للقضاء عليه .

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ (مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٣٦)
(٢) الكامل فى التاريخ : جـ ٨ ص ١٢
(٣) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ٤٢

أما ما ذكره ابن خلدون[١] والمقريزى[٢] عن توجه عبيد الله المهدى إلى المغرب وعدوله عن إقامة دولته في بلاد اليمن بسبب ما بلغه عن انحراف على بن الفضل عن الدعوة الاسماعيلية وإساءته السيرة فى بلاد اليمن بما نشره من آراء أفسدت عقول فريق من أهلها ، فلا يستند إلى أدلة صحيحة لأن المتتبع لرحلة المهدى من سلمية إلى مصر ، ثم إلى بلاد المغرب يتضح له أنه لم يفكر فى الذهاب إلى بلاد اليمن ، كما أن مناهضة على بن الفضل للدعوة الإسماعيلية لم تظهر إلا بعد أن استقر الأمر لعبيد الله المهدى فى بلاد المغرب ؛ ولو أن عبيد الله المهدى كان حريصا على إقامة دولته في بلاد اليمن لما ثناه عن ذلك خروج على بن الفضل على دعوته لأن داعيه ابن حوشب ظل مواليا له وصار له أنصار كثيرون بين أهالى بلاد اليمن يرحبون بقدوم المهدى إليهم ويعتقدون بصحة إمامته ، فإذا ما قصد بلادهم دخل الجميع في طاعته والتفوا حوله .

كان عبيد الله المهدى يصحب عند خروجه من سلمية داعى دعاته فيروز ، فلما وصل إلى مصر وشرع فى الرحيل منها إلى المغرب شق ذلك على فيروز وتخلف عن السير معه ومضى إلى اليمن حيث استقبله ابن حوشب بمظاهر الحفاوة والاحترام لما كان يتمتع به من مكانة خاصة عند المهدى . وقد تحدث فيروز عن مهمته فى بلاد اليمن ، فقال : إن الامام بعث به مشرفا عليه إلى أن يقوم من المغرب بجنده إلى مصر ويكتب إليه ليمده بالعساكر من أهل اليمن[٣] .

---

(١) ج ٤ ص ٦٩ (٢) اتعاظ الحنفا ص ٦٩

(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب (مجلة كلية الآداب – ديسمبر ١٩٣٦) ص ١١٤ – ١١٥

على أن ابن حوشب ما لبث أن وقف على الأسباب التى حملت فيروز على القدوم إلى اليمن حين وصله كتاب من المهدى مقرونا بكتاب الداعى أبى على — صهر فيروز — الذى كان إذ ذاك يقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى مصر . وقد تضمن هذان الكتابان كيف انصرف فيروز عن المهدى ورحل إلى اليمن مغاضباً له . وكان المهدى يخشى عاقبة خروج فيروز عليه، لذلك أمر ابن حوشب فى كتابه بالعمل على التخلص منه .

لما وصل الى فيروز ما تضمنه الكتاب الذى بعثه المهدى الى ابن حوشب ولى هاربا . ولم يزل ابن حوشب يتابع البحث عنه حتى بلغه خبر اتصاله بعلى بن الفضل وأنه فتنه عن الدعوة الاسماعيلية ودعاه إلى نفسه ؛ فخرج إليهما وحاربهما مدة طويلة[1] .

كانت الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن فى حاجة إلى توحيد جهود كل من ابن حوشب وعلى بن الفضل فى سبيل نشرها ، لكن على بن الفضل لم يتعاون مع ابن حوشب تعاونا صادقا لتحقيق هذه الغاية ، بل كثيرا ما استقل عنه فى نشر تلك الدعوة .

كذلك لم يكن على بن الفضل مخلصا فى ولائه لعبيد الله المهدى ، فوقع تحت تأثير فيروز الذى أغراه بقبول دعوته ، كما طمع فى الاستقلال ببلاد اليمن بعد أن استقرت له الأمور فى كثير من أرجائها ، وخلع طاعة عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب ، فبعث إليه ابن حوشب رسالة يعاتبه فيها ويذكره بما كان من رعاية محمد الحبيب لهما ، وقيامه

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

بأمرها ، وقال له : « كيف تخلع طاعة من لم تنل خيرا إلا به وتترك الدعاء له ؟ أو ما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود[١] » . فلم يعبأ ابن الفضل بقوله وكتب اليه : « انما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها[٢] » .

لم يكتف ابن الفضل بخروجه على عبيد الله المهدى ، بل ثار أيضا على ابن حوشب طمعا فى استخلاص بلاد اليمن لنفسه ، فأعد جيشا كبيرا لمحاربته ، ودار بين الفريقين قتال عنيف ، ولما اشتدت وطأته على ابن حوشب ، أرسل الى على بن الفضل فى طلب الصلح ، فاشترط أن يبعث اليه أحد أبنائه ليكون ذلك دليلا على دخوله في طاعته ، فأجابه ابن حوشب الى طلبه وأرسل إليه ولده ، فأبقاه ابن الفضل عنده سنة ثم رده إليه[٣] .

لم يؤد هذا الصلح إلى عودة الوفاق بين ابن حوشب وعلى بن الفضل سيرته الأولى ، بل ظل كل منهما يعمل مستقلا عن الآخر مما ساعد على إضعاف الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن ، كما أن عبيد الله المهدى رغم حرصه على بسط سيادته على تلك البلاد لم يوجه اهتمامه إلى وضع حد لهذا النزاع الذى قام بين ابن حوشب وعلى بن الفضل ، بل تركهما وشأنهما . ولعل انشغاله بتوطيد دعائم خلافته فى بلاد المغرب هو الذى حمله على الانصراف عنهما .

ظل ابن حوشب حريصاً على ولائه لعبيد الله المهدى حتى توفى

(١) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ورقة ٣١

(٢) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٣

(٣) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٥ — ٣٦

سنة ٣٠٢ هـ . أما على بن الفضل فإنه منذ خلع طاعة عبيد الله المهدي لم يعدل عن خطته فى العمل على الاستئثار بالنفوذ فى بلاد اليمن مما أثار ضده السنيين وأنصار المهدى ، ولم يتمكن فى النهاية من التغلب على هذين الفريقين والانفراد بالزعامة فى بلاد اليمن ، وبذلك لم تتحقق مطامعه ، بل فشل فى تكوين حزب قوى يكون عوناً له على نشر دعوته ، فلما توفى سنة ٣٠٣ هـ لم يجد ابنه الذى ولى الأمر من بعده أنصاراً أقوياء يدرءون عنه خطر السنيين فى بلاد اليمن ، فتعرض لهجومهم ووقع إخوته أسرى فى أيديهم ، وما زالوا يتتبعون أعوانه حتى قضوا عليهم[1] .

ظل للدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن أنصار كثيرون بفضل ما بذله ابن حوشب من مجهود فى سبيل نشرها . وبلغ من اهتمامه بأمرها أن أوصى قبيل وفاته سنة ٣٠٢ هـ كلا من ابنه أبى الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاورى بأن يستمرا فى إقامة الدعوة لعبيد الله المهدى وأهل بيته ، وقال فى وصيته : « قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحتفظاه ولا تقطعا دعوة بنى عبيد . . . فنحن غرس من غرسهم ولولا ناموسهم وما دعونا به اليهم ما صار الينا من الملك ما قد نلناه ولا تم لنا فى الرياسة حال ، فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستمداد الأمر منهم ، فأوصيكما بطاعة المهدى . . . حتى يرد أمره بولاية أحدكما ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه[2] » .

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ — ٣٩

(٢) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٩



كان عبد الله بن عباس الشاورى يطمع فى الاستقلال بأمر الدعوة فى بلاد اليمن ، فكتب إلى عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب يخبره بوفاة ابن حوشب ، كما أبلغه أنه يقوم بأمر الدعوة له وسأله الولاية وعزل ولد ابن حوشب [1] . ولما كان أبو الحسن ولد ابن حوشب يرى أحقيته فى أن يخلف أباه فى القيام بأمر تلك الدعوة ، لذلك رحل إلى بلاد المغرب حيث قابل المهدى وطلب منه أن يقلده محل أبيه ورجاه ألا ينزع هذا الأمر من إخوته ، غير أن المهدى لم يجبه إلى طلبه لأنه أقر قبيل قدومه عليه عبد الله بن عباس الشاورى فى القيام بأمر دعوته ، فعاد أبو الحسن إلى بلاد اليمن دون أن تتحقق رغبته [2] .

وليس من شك فى أن عبيد الله المهدى أثبت بتدخله فى تولية عبد الله بن عباس الشاورى أمر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن وإقصائه أولاد ابن حوشب عنها ما كان يتمتع به من نفوذ فى بلاد اليمن ، كما أنه حرص على اختيار من يثق به ليكون عونا له على نشر دعوته فى تلك البلاد وخاصة بعد أن ضعف أمرها من جراء النزاع الذى قام بين كل من على بن الفضل وابن حوشب .

على أن تولية عبد الله بن عباس الشاورى أمر الدعوة الفاطمية فى اليمن لم تلق ارتياحاً من نفس أبى الحسن ولد ابن حوشب على الرغم مما أظهره ابن عباس الشاورى من شعور طيب نحوه ونحو أخويه جعفر

---

(١) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٠

(٢) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

وأبى الفضل وإكرامه إياهم وترحيبه بمقابلتهم فى أى وقت شاءوا دون أن يعترضهم حجابه[١].

وقد أدى حرمان أبى الحسن من رياسة الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن إلى اضماره السوء والعداوة لابن عباس الشاورى الذى قبح رأيه وزجره وقال له : « أنت تعلم أنه غرس أبينا وأنه لا يقدم علينا سوانا فى هذا الأمر » ، فأجابه بقوله : « والله لا تركته يتنعم فى ملك عنى به غيره ، ونحن أحق به منه » . فقال له أخوه جعفر : « إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا وتفترق هذه الدعوة ويذهب الناموس الذى نمسناه[٢] على الناس ، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك » ، فلم يلتفت أبو الحسن الى قول أخيه جعفر وعول على التخلص من ابن عباس ، وما لبث أن قتله غدراً وولى الأمر من بعده[٣] .

لم يعمل أبو الحسن بعد أن تقلد ما كان يليه أبوه ابن حوشب على نشر الدعوة الفاطمية ، بل انقلب معاديا لها ، حريصاً على القضاء عليها بعد أن كان من أنصارها ، فارتد عن المذهب الاسماعيلى واعتنق مذهب أهل السنة ، وجمع العشائر وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه ، فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة[٤] .

---

(١) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك وطبقات الموالى والملوك ص ١٥١

(٢) نمس السر : كتمه ، ونمس بين القوم أفسد واغرى
(حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب عبيد الله المهدى حاشية رقم ٢ ص ٢٣٨) .

(٣) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

(٤) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥١

كان لخروج أبي الحسن على الدعوة الفاطمية أسوأ الأثر فى نفس أخيه جعفر الذى عارضه فى سياسته وقبح رأيه وقال له : « قطعت يدك بيدك » ، فلم يكترث بقوله ، وخرج جعفر من بلاد اليمن مغاضبا له وقصد بلاد المغرب رغبة منه فى الاتصال بعبيد الله المهدى وإخباره بمناهضة أخيه للدعوة الفاطمية ، فوجده قد توفى وخلفه ابنه القائم سنة ٣٢٢ هـ ، فأقام عنده .

مضى أبو الحسن فى سياسته التى اختطها لنفسه والتى كان من أثرها أن فرقت بينه وبين أخيه جعفر ، دون أن ينظر إلى عاقبتها الوخيمة عليه فأخذ يتتبع أنصار أبيه من الاسماعيلية تتبعا مقرونا بالشدة والعسف ، أدى إلى تفرقهم وقتل الكثيرين منهم ؛ غير أن بعض الاسماعيلية فى اليمن استطاعوا النجاة من اضطهاده ، كما حرصوا على كتمان أمرهم حتى لا يتعرضوا لايذائه وولوا عليهم رجلا منهم — وكان لا ينقطع عن مكاتبة الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب [1] مما يثبت لنا أن الدعوة الفاطمية لم يقض عليها في بلاد اليمن ، وأنه لم يزل لها أنصار يرجون سيادتها على الرغم مما لاقوه من عنت واضطهاد .

لم يجن أبو الحسن ثمرة مناهضة الدعوة الاسماعيلية وخروجه على طاعة الخلافة الفاطمية ، فانه فضلا عن انقسام أهل بيته وما ترتب عليه من انصراف كثير من أنصاره عنه ، لم يلق من أنصاره الجدد من السنيين تأييدا يكون عونا له على نجاح هذا الانقلاب الذي أحدثه ، بل شكوا فى إخلاصه رغم ارتداده عن المذهب الاسماعيلى ، وتآمروا عليه

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

وقتلوه، وتتبع السنيون من أهالى بلاد اليمن الغربية أولاده وحريمه، فقتلوا الصغير منهم والكبير وسبوا حريمهم، وبذلك قضوا على أسرة ابن حوشب [١].

لما توفى أبو الحسن، طمع ابراهيم بن عبد الحميد الشيعي — وكان من كبار دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن — فى أن يتقلد ماكان يليه من البلاد، فأعلن ارتداده عن المذهب الاسماعيلى وأقام الخطبة لبنى العباس [٢]، ولم يزل يتتبع الاسماعيلية ويقتلهم حتى قضى على الكثيرين منهم. ومالبث أن اجتمع شمل الفريق الذى نجا من هذا الاضطهاد بناحية جبل مسور جنوبى صنعاء تحت زعامة ابن الطفيل [٣]. ولما وصل إلى ابراهيم بن عبد الحميد الشيعي نبأ تزعمه الاسماعيلية باليمن خرج إليه وقتله، فتفرق من بقى من أصحابه وقصدت جماعة منهم نواحى عمان [٤].

اتخذت طائفة الاسماعيلية باليمن بعد وفاة ابن الطفيل، ابن رحيم رئيسا لها ويعرف أيضا بابن جفتم [٥]، وكان كثير التنقل، لايستقر فى موضع واحد خوفا من تعقب السنيين له. ولم يصرفه ذلك عن مكاتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي منذ قدم من بلاد المغرب إلى مصر، واتخذ القاهرة حاضرة له، وأظهر له فى كتبه دخوله فى طاعته، كما حرص

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١

(٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢

(٣) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤

(٤) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١

(٥) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٦

على أن ينهى اليه وإلى الخليفة العزيز بالله الفاطمي من بعده أخبار أهل اليمن [١]. ولم يزل على ولائه لهذا الخليفة حتى شعر بدنو أجله ، فاستخلف على أتباعه من الاسماعيلية رجلا منهم يقال له يوسف بن الأسد [٢].

لم يكن دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن هم الذين أقاموا الدعوة وحدهم للخليفة العزيز بالله الفاطمى ، بل أقامها أيضا أمير صنعاء عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر سنة ٣٧٩ هـ . وكان أمراء بنى يعفر قد استعادوا هذه المدينة بعد وفاة على بن الفضل سنة ٣٠٣ هـ ، وضموا إلى حوزتهم بعض البلاد المجاورة لها ، وأقاموا فيها الخطبة للخليفة العباسى . فلما استقرت الأمور لعبد الله بن قحطان فى صنعاء ، تجهز لفتح تهامة وأوقع الهزيمة بأميرها أبى الجيش اسحق بن ابراهيم بن زياد ، ثم دخل زبيد حاضرة بنى زياد واستولى عليها وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسى فى جميع البلاد التى تحت سيطرته وإقامتها للخليفة العزيز بالله الفاطمى ، واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٣٨٧ هـ [٣].

وهكذا أتيح للدعوة الفاطمية أن تستعيد مكانتها فى بلاد اليمن بعد أن لاقى دعاتها كثيرا من العنت والاضطهاد على يد السنيين ، كما أخذت الدعوة العباسية فى تلك البلاد فى الضعف والانحلال تبعا لنشاط دعاة الإسماعيلية وانصراف أمراء اليمن — الذين كانوا يدينون بالطاعة لبنى العباس — إلى التنافس والتنافر فيما بينهم مما أدى ببعضهم إلى إحلال اسم

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١ — ٤٢

(٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢

(٣) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٧

الخليفة الفاطمى فى الخطبة محل الخليفة العباسي ، وليس من شك فى أن هذا العمل مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمى ببلاد اليمن .

كان دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن لايألون جهدا فى القيام بنشر الدعوة للخلفاء الفاطميين ، فظل يوسف بن الأسد يدعو سرا للخليفة الحاكم بأمر الله حتى توفى ، فخلفه داع جرىء يدعى عامر بن عبد الله الزواحى ـ كان كثير المال والجاه ـ ، وقد استغل ماله ونفوذه فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، واستمال عددا كبيرا من أهالى اليمن إلى المذهب الاسماعيلى ، وظل يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل أيام المستنصر [١] . ولما حضرته الوفاة استخلف على بن محمد الصيلحى [٢] الذى نشأ فقيها صالحا ، وصار دليلا لحاج اليمن عدة سنين ، وما لبث أن عظمت شهرته وذاع بين الناس أنه سيمتلك اليمن بأكمله . ولما حج سنة ٤٢٨ هـ ، اجتمع بفريق من قومه همدان ودعاهم إلى نصرته ومؤازرته فى دعوته ، فأجابوه وبايعوه ، وكانوا ستين رجلا من رجالات عشيرته [٣] .

وجه على بن محمد الصليحى اهتمامه بعد عودته من بلاد الحجاز إلى اليمن سنة ٤٢٩ هـ إلى إحياء الدعوة الاسماعيلية القديمة التى قلده عامر عبد الله الزواحى زمامها ، فأخذ فى إظهارها واتخذ حصن مسار بجبل حراز مقرا له ومازال يستميل الناس حتى اجتمع اليه من سنحان وهمدان وحمير خلق كثير [٤] .

(١) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢

(٢) عرف بالصليحى نسبة إلى الأصلوح من بلاد حراز باليمن .
العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٨

(٤) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤

لم تكن الأمور ممهدة لعلى بن محمد الصليحي ليقوم بنشر دعوته فى جميع أرجاء بلاد اليمن ؛ فعلى الرغم من زوال دولة بنى زياد سنة ٤٠٩ ﻫ ، فقد ورث ملكهم مواليهم الذين ساروا على سياستهم فى إقامة الخطبة لبنى العباس ، وكان من بين هؤلاء الموالى نجاح الذى تمكن من إقامة دولة سنية فى زبيد خلفت دولة بنى زياد . وقد تمتع نجاح بكثير من مظاهر الاستقلال فى دولته ، فصار يركب بالمظلة كغيره من السلاطين ويسك العملة باسمه ، وبلغ من ازدياد نفوذه أن فوض إليه الخليفة العباسى تقليد القضاء لمن هو أهل له ، كما عهد إليه بالنظر فى شئون البلاد اليمنية ولقبه بالمؤيد نصر الدين [١].

كانت دولة نجاح السنية تعمل على قمع أى محاولة يقوم بها دعاة الإسماعيلية لنشر دعوتهم فى بلاد اليمن ، لهذا لم يستطع الصليحى رغم تأييد خلافة المستنصر بالله الفاطمى أن يجهر بالدعوة له . يقول بامخرمة [٢] « وكان الصليحى يدعو للمستنصر بن معد بن الظاهر العبيدى سرا ويخاف نجاحا » .

وقد عمد الصليحى إلى مداراة نجاح وأظهر له أنه يدين بالطاعة له ، كما أخذ يتودد إليه ليأمن جانبه ، ثم دبر مؤامرة للتخلص منه ؛ فأهدى إليه جارية سنة ٤٥٢ ﻫ دست له السم فمات [٣] ، وخلفه من أولاده سعيد

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١١ — ١٢ ، ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ورقة ٨٦ .

(٢) المختار فى تاريخ ثغر عدن ورقة ١٢٧ .

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٤ .

O'Leary De Lacy, A Short History of the Fatimid Khalifate p. 207.

الأحول وجيّاش ؛ غير أنهما لم يستطيعا أن يقفا فى وجه الصليحى طويلا وهربا إلى دَهْلَك[١] ؛ وبذلك قضى الصليحى على دولة نجاح وضم زبيد إلى حوزته .

لما قوى أمر الصليحى وتوطد نفوذه في بلاد اليمن التى احتلها ، كتب إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٥٣ ﻫ يستأذنه فى إظهار دعوته ، كما بعث إليه هدية ثمينة ، تشمل سبعين سيفا ، مقابضها من عقيق وخمسة أثواب وشى وفصوص عقيق ومسك وعنبر ، فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات ، كتب عليها الألقاب وعهد إليه بالولاية ، وأذن له فى نشر الدعوة[٢] .

علت مكانة الصليحى فى بلاد اليمن بفضل تأييد المستنصر له ، وأخذ يوجه اهتمامه إلى توسيع رقعة بلاده ؛ فسار إلى التهائم فافتتحها . ولم تمض سنة ٤٥٥ ﻫ إلا وقد بسط سلطانه على بلاد اليمن واتخذ صنعاء مقرا له[٣] ، وفى ذلك يقول العرشى[٤] : « ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى ، فإنه استولى على اليمن ، سهله وجبله ، وشماله وجنوبه ، وغربه وشرقه ، فى المدة اليسيرة ، وقهر ملوكه » .

استطاع الصليحي بعد أن اتسعت رقعة دولته وقضى على مناوئيه

---

(١) المقريزى : خطط ﺟ ٢ ص ١٧٢ .
دهلك : جزيرة فى بحر اليمن (ياقوت : معجم البلدان)
(٢) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢١ .
(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٨ .
(٤) بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٥ .

أن يعيد للدعوة الاسماعيلية مكانتها فى بلاد اليمن — وكانت قد وهنت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم ، وصارت الخطبة تقام على منابر تلك البلاد للمستنصر والصليحى وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وزالت بذلك دعوة بنى العباس من بلاد اليمن[١] .

لما استقرت الأمور للصليحى فى صنعاء ، دعا إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه وولى صهره أسعد بن شهاب زبيد وأعمالها تهامة ـ وكان قد أقسم ألا يوليها إلا لمن قدم إليه مائة ألف دينار — ثم ندم على يمينه ؛ فلما حملت إليه زوجته أسماء هذا المبلغ ليوافق على تعيين أخيها أسعد ، قال لها الصليحى : يامولاتنا : أنى لك هذا . قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فتبسم وهو موقن أنه من خزانته . وبعد أن أعيد إليه المبلغ ، قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا . فقالت : ونمير أهلنا ونحفظ أخانا » ، فأقر الصليحى أسعد ابن شهاب على ولاية زبيد سنة ٤٥٦ هـ . وكان حسن السيرة ، فلم يسىء إلى رعاياه وعلى الأخص السنيين ، وبلغ من تسامحه معهم أن أجاز لهم إظهار مذاهبهم[٢] .

كان الصليحى يحكم بلاد اليمن على اعتبار أنه نائب عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وحرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين فى مصر . وقد تبودلت بين الصليحى والمستنصر بالله الفاطمى عدة مراسلات تبين لنا ما كان بينهما من صلة وثيقة ، فى شهر

(١) بامخرمه : المختار من ثغر عدن ورقة ١٣٩ — $\frac{a}{b}$١٤٠ .
(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٩ .

صفر سنة ٤٥٢ هـ أرسل المستنصر كتابا إلى الصليحى أخبره فيه بمولد ابنه أحمد الملقب بأبى القاسم وطلب منه إذاعة هذا النبأ فى جميع أنحاء دولته [١]، كما بعث إليه خطابا آخر فى رمضان سنة ٤٥٥ هـ وصف فيه ثورة ابن باديس بإفريقية وكيف تمكن من القضاء عليها وأعاد بلادها إلى حوزته [٢]. ويتبين لنا من هذا الخطاب الأخير مدى اهتمام المستنصر بإخبار الصليحى نائبه وداعيته فى بلاد اليمن بالأحداث التى تقع فى دولته.

كان المستنصر يثق بالصليحى ويطمئن إليه فى نشر دعوته ليس فقط فى بلاد اليمن، بل أيضا فى بلاد الحجاز ؛ فعهد اليه بإقرار الأمور فى مكة وطلب منه فى رسالة بعثها إليه سنة ٤٥٦ هـ أن يعامل واليها بالرأفة والرحمة ، وأبدى له فى هذه الرسالة ارتياحه للخدمات الجليلة التى قام بها فى سبيل إقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه فى بلاد اليمن والحجاز ، وأنعم عليه بلقب عمدة الخلافة [٣].

كان الصليحى يريد السفر إلى مصر ليحظى بمقابلة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ فبعث اليه رسالة مع مبعوثه مالك بن مالك ليأذن له بالقدوم عليه ؛ فأذن له الخليفة فى خطاب أرسله إليه فى جماد آخر سنة ٤٥٩ هـ [٤]. غير أن الصليحى رأى أن يذهب أولا إلى مكة

(١) (B. S. O. S.), Vol VII, Part 2, 1934, Letters of Al-Mustansir (حسين الهمدانى) p. 313.

(٢) (B. S. O. S), Vol VII, Part 2, 1934, p. 312313.

(٣) (B. S. O. S.), 1934 Vol VII Part 2, p. 312.

(٤) (B. S. O. S.) 1934 Vol VII Part 2, p. 309.

لأداء فريضة الحج ، واستخلف ابنه المكرم أحمد بصنعاء ، واستصحب معه أمراء اليمن خوفا من تآمرهم على ولده وإقصائه عن الملك ، كما أخذ بصحبته زوجته أسماء بنت شهاب وبعض أفراد أسرته . وبينما هو فى طريقه إلى مكة اغتاله سعيد الأحول بن نجاح فى أواخر سنة ٤٥٩ هـ[١] .

ولى المكرم أحمد الملك فى بلاد اليمن بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحى وبعث اليه الخليفة المستنصر بالله رسالة فى شهر شعبان سنة ٤٦٠ هـ عبر فيها عن أسفه لوفاة والده وعهد اليه بشئون الدعوة[٢] .

عول المكرم بعد أن تقلد زمام الأمور فى بلاد اليمن على التخلص من سعيد الأحول بن نجاح الذى كان إذ ذاك قد استولى على زبيد ، فسار إليه على رأس جيش كبير . ولم تزل المعركة دائرة بين الفريقين حتى هرب سعيد ومن معه إلى دهلك . واستعاد بذلك المكرم سلطانه على زبيد وولىّ عليها خاله أسعد بن شهاب . على أن بنى نجاح مالبثوا أن عادوا إلى زبيد فأوقع بهم المكرم الهزيمة وأخرجهم منها وقتل سعيد بن نجاح . وبعد أن تغلب المكرم على الصعوبات التى واجهته ، أمر بضرب الدينار الملكى ونقش عليه هذه العبارة : « الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين »[٣] .

لما وصل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى نبأ الهزيمة التى حلت

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٢ ، ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٤٠ .

(٢) (B. S. O. S.), 1934 vol VII Part 2, p. 319.

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٦ — ٢٧

بسعيد الأحول بن نجاح وقتله ، أرسل إلى المكرم خطابا نوّه فيه عن سروره لهزيمة العدو وأخذه الثأر لأبيه وقال له : « فلله درك أيها الأجل ، لقد ذكى غرسك وطاب وحق أمل أمير المؤمنين فى تقديم قدمك وما خاب ، فاعلم أنك خليفته فى بلاد اليمن وعماده وعدته وسناده ، وقر عينك بما أعطاك من الرتبة السنية والدرجة العلية . » ، وأبلغه فى نهاية خطابه أنه أنعم عليه بلقب أمير الأمراء (١) .

لم يكن لدى المكرم الصفات التى تؤهله ليخلف أباه فى إدارة شئون بلاد اليمن لذلك نراه بعد أن استعاد زبيد من سعيد الأحول وعاد إلى صنعاء يقلد زوجته السيدة الحرة بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسي الصليحى زمام الأمور فى اليمن ، ويعهد إليها بالقيام بأمر الدعوة الإسماعيلية ، أما هو فقد أنصرف إلى التمتع بملاذ الحياة (٢) .

على أن المكرم رغم ذلك حرص على توطيد علاقته بالمستنصر بالله الفاطمى ، فظل مواليا له وعبر عن ذلك فى كتبه التى بعثها إليه ، كما أن الخليفة الفاطمي لم يهمل شأنه وأولى زوجته السيدة الحرة كل ثقته لإخلاصها للدعوة الاسماعيلية وظلت كتبه لاتنقطع عنها ؛ فبعث إلى المكرم خطابا فى ربيع الثانى سنة ٤٦٩ هـ ، عهد إليه فيه بإدارة شئون ولاية عمان رغم أنها خارجة عن نطاق حكمه ، كما أمره فى هذا الخطاب بالعمل على استتباب الأمن فى بلاد الحجاز وأن يلزم جانب الأمير عبد الله بن على

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2, p. 323.

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٩ .

العلوى والى الأحساء « مستخلص الدولة العلوية وعدتها [١] . »

كذلك أرسل المستنصر إلى المكرم كتابا فى ٢٩ من ذى القعدة سنة ٤٧٠ هـ تضمن وصفاً للمركز السامى الذى تقلده بدر الجمالى فى دولته والخدمات العظيمة التى أداها له باعتباره إماماً ، وكيف وطد نفوذ خلافته ، فقال : « قد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رميما ونصر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما ، لم يكن لأمير المؤمنين بد من أن يرقيه فى الرفع والاعلاء فوق الفراقد ، ويحله منه محل الوالد ويجعل له مقام الملك وينزله فى عقد خلافة الامامة مكان السلك ، فنصّ عليه فى كفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين نص حق ونقلها منه إلى محق مستحق إذا كان مبرزا فى ميدانها ، ناطقاً بلسانها عالما بأحكامها... » ، وطلب المستنصر من المكرم فى نهاية كتابه أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته ، فقال : « فول وجهك نحو هذا السيد الأجل واجعله قبلة دينك فى مصادرك ومواردك [٢] » .

ومما لاشك فيه أن بدرا الجمالى الذى قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وزارة السيف والقلم كان يتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير فى مصر ، فقد عهد إليه الخليفة إدارة كافة شئون دولته وزاد فى ألقابه : « السيد الأجل ، أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، هادى دعاة المؤمنين » ؛ ومن ثم صارت كلمته نافذة على القضاة والدعاة وسائر موظفى الدوله [٣] . ولما كانت

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2p. 322.

(٢) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2p. 317-318.

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٨٢

سلطة بدر الجمالي قد امتدت تبعاً لذلك إلى الولايات الخاضعة لنفوذ الخلافة الفاطمية ، لذلك رأى المستنصر أن يبعث إلى القائمين بأمر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن يخبرهم بتقلد بدر الجمالي زمام دعوته . فأرسل إلى السيدة الحرة خطاباً أشاد فيه بذكر هذا الوزير وقال: «فهو خليفتنا وباب دعوتنا ، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس ، وهو عليك شفيق ولمصالح حالكم سالك في كل طريق ، وختم خطابه بقوله : « فاعلمي ذلك وسارعي إليه ، إن شاء الله تعالى[١] . »

كان المكرم قبل وفاته قد أوصى أن يخلفه في الدعوة ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علي الصليحي ، فلما توفي سنة ٤٨٤ هـ ، أرسلت السيدة الحرة خطابا إلى المستنصر بالله الفاطمي تخبره بوفاة زوجها المكرم وترجوه أن يوافق على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه ـ وكان لايزال طفلا ـ ، فأقر الخليفة تعيينه خلفا لأبيه وعهد إليه بالقيام بشئون الدعوة ، وأمر أن تعنون جميع المراسلات الصادرة منه إلى بلاد اليمن باسم عبد المستنصر[٢] ، كما أرسل خطابات أخرى مع رسوله عضد الدين أبي الحسن جوهر المستنصري ، إحداها إلى السيدة الحرة يعزيها في وفاة زوجها المكرم ويثني على وفائها للدعوة .

على أن تولية عبد المستنصر أمر الدعوة لم يلق قبولا لدى أمراء اليمن بسبب صغر سنه ، يؤيد ذلك هذا الخطاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي إلى عبد المستنصر وقد وصفه فيه بأنه « سليل الدعوة ونجلها»،

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII Part 2 p. 315.

(٢) (B. S. O. S.), 1934, Vol VII part 2 p. 316.

وأن أسلافه ظلوا متمسكين بها ، وأنه قلده عرش اليمن تحت رعايته رغم صغر سنه ، وبرر ذلك بأنه هو نفسه ولى الخلافة وهو دون الثامنة من عمره ، وقال : «وقد جاز هذا فى الامامه وهى الدرجة التى تلى النبوة، فكيف الدعوة التى لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره[١]» .

كان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يحرص على استقرار الأمور فى بلاد اليمن ليضمن بذلك الاحتفاظ بسيادته على تلك البلاد ، فلما قام النزاع بين الداعى أبى حِمْيَر سبأ بن أحمد الصليحي وأبى ربيع سليمان بن الأمير الزواحى على أثر تولية عبد المستنصر رئاسة الدعوة ، بعث رسالة إلى السيدة الحرة قال فيهـا إنه ينظر إلى هذا النزاع بشىء من القلق وطلب إليها أن تسعى فى الصلح بينهما .

كذلك أرسل المستنصر كتابا إلى الصليحيين وآل الزواحى رجاهم فيه أن ينهوا ما بينهم من خلاف وأن يطيعوا السيدة الحرة وابنها عبدالمستنصر ، وناشدهم مناشدة قوية لكى يتحدوا فى سبيل نشر الدعوة ، وعبّر فى خطابه عن ارتياحه للخدمات التي قام بهـــا كل من الصليحى والمكرم والسيدة الحرة لنجاح دعوته[٢] .

لقيت الدعوة التى وجهها المستنصر إلى آل الصليحى وآل الزواحى لفض النزاع بينهم قبولا . وقد وافته بهذا النبأ السيدة الحرة فى خطاب أرسلته إليه . فبعث إليها الخليفة ردا أعلن فيه سروره لزوال الخلاف

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, vol VII part 2 p. 319.

(٢) (B. S. O. S.), 1934, vol vII Part 2 p. 318-319.

الذى قام بين سبأ بن أحمد الصليحي وسليمان بن الأمير الزواحى وعقد الصلح بينهما(١) .

لم يعمر عبد المستنصر طويلا ، فقد وافته المنية ونشب بعد وفاته نزاع بين الداعى سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة بسبب طموحه إلى الاستحواذ على رياسة الدعوة وحكم بلاد اليمن ورغبته فى التزوج منها . لكن السيدة الحرة كرهت ذلك وأنكرته ؛ وتهيأ كل منهما للقتال . وبعد أن دارت الحرب بينهما أياما أرسل سليمان بن عامر الزواحى إلى الداعى سبأ بن أحمد يقول له « والله لا أجبتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله(٢) » ، فبعث سبأ بن أحمد إلى المستنصر بالله رسولين هما : القاضى حسين بن إسماعيل الأصبهانى وأبو عبد الله الطيب ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة أن يطلب من السيدة الحرة التزوج منه(٣) . فكتب إليها المستنصر خطابا أمرها فيه بالتزوج من الداعى سبأ بن أحمد ، وسيّر إليها أستاذا من قبله يلقب بيمين الدعوة ليتحدث معها فى هذا الشأن(٤) .

لما حظى رسول المستنصر بمقابلة السيدة الحرة وقف بين وزرائها وكتابها ورجال دولتها وقال موجها الكلام إليها : « أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الزكية ، وحيدة الزمن ،

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, vol vII Part, 2 p. 321.

(٢) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢

(٤) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٤٣

سيدة ملوك اليمن ، عمدة الاسلام ، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين ، كهف المستنجدين ، ولية أمير المؤمنين ، وكافلة أوليائه الميامين ، ويقول فيها : « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» . وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة ، أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفا أصنافا من تحف وألطاف وطيب وكساوى . فقالت السيدة الحرة : «أما كتاب مولاى فأقول فيه إنى ألقى إلى كتاب كريم (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) ، ولا أقول فى أمر مولانا : (ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى . ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) ، وأما أنت يا ابن الاصبهانى [1] فوالله ماجئت إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون [2] . » ، ثم تقدم إليها وزيرها زريع بن أبى الفتح والقاضى الحسين بن اسماعيل الأصبهانى وبعض رجال دولتها وأخذوا يحسنون لها التزوج من الداعى سبأ بن أحمد، ومازالوا يلحون عليها فى الرجاء حتى قبلت عقد الزواج تحقيقا لرغبة الخليفة [3] .

يتبين لنا من تدخل المستنصر بالله الفاطمى فى مسألة زواج الداعى سبأ بن أحمد من السيدة الحرة إلى أى حد علت مكانة هذا الخليفة بين

(١) وهو أحد الرسولين اللذين بعثهما الداعى سبأ بن أحمد إلى الخليفة المستنصر
(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢ — ٣٣
(٣) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥

أمراء اليمن ودعاتها حتى أصبحت كلمته نافذة عليهم ، ليس فقط فى المسائل السياسية والدينية بل فى المسائل الخاصة ؛ وقد سبق له أن أبدى رغبته فى وضع حد للنزاع بين آل الصليحى وآل الزواحى ، وها هو يأمر السيدة الحرة بالتزوج من الداعى سبأ بن أحمد . ولا شك أنه كان يرجو من وراء هذا الزواج توثيق الصلة بين أمراء اليمن ودعاتها وعدم إثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا تتعرض الدعوة للضعف من جراء تفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنازعات التى قد تؤدى فى النهاية إلى زوال نفوذهم .

على أن السيدة الحرة لم تمكن زوجها الداعى سبأ بن أحمد من السيطرة على شئون بلاد اليمن، بل استحوذت عليها واستأثرت بالسلطة دونه ، وظلت موالية للمستنصر وآل بيته وتوثقت عرى الصداقة بينها وبينهم . وأكبر دليل على ذلك الرسائل التى تبودلت بين السيدة الحرة والمستنصر ، وبينها وبين والدة هذا الخليفة وأخته مما يثبت لنا ثقتهم بقدرتها على إقرار الأمور فى بلاد اليمن وإذاعة الدعوة بين ربوعها ، بل بلغ من ثقة المستنصر بكفايتها للقيام بشئون الدعوة فى اليمن أن عهد إليها أمر تنظيمها فى بلاد الهند وعُمان ، كما أجاز لها أن تعين من يقع اختيارها عليه من الدعاة لنشر الدعوة فى تلك البلاد[1] .

لم يكن لمظاهر الضعف التى أصابت الخلافة الفاطمية فى أواخر عهد المستنصر أى أثر فى بلاد اليمن ، فظلت السيدة الحرة مخلصة فى ولائها لهذا الخليفة رغم مابلغها عن تقلص نفوذه .

---

(١) (B. S. O. S.), 1934, vol vii Part 2 p. 321.

لما توفى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلى بالله أيدت السيدة الحرة خلافته ، كما أيدها دعاة اليمن رغم أن الاسماعيلية فى مصر لم يجمعوا على أحقيته فى تقلد عرش الخلافة بعد أبيه ، ذلك أن الأفضل بن بدر الجمالى وزير المستنصر أقدم بعد وفاة هذا الخليفة على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش ، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد بعد أن اجتمع بالأمراء وخوفهم مما يصيبهم من نزار إذا ما ولى الحكم فى الدولة الفاطمية . وقد ترتب على إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها إلى خروج أهالى الاسكندرية على طاعة الخليفة الجديد وانحيازهم إلى نزار . غير أن الأفضل مالبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره فى ثورته[1] .

أرسل المستعلى إلى السيدة الحرة رسالة مؤرخة فى ٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ تضمنت وصفا لثورة نزار وتغلب وزيره الأفضل بن بدر الجمالى عليها نهائيا ، كما بعثت والدة هذ الخليفة إلى السيدة الحرة رسالة أخرى تحدثت فيها عن عهد المستنصر لولدها أبى القاسم أحمد وكيف ثار نزار بالاسكندرية على خلافته وما ترتب على ذلك من قيام الأفضل على رأس حملة تمكنت من اعتقال نزار والقضاء على ثورته[2] .

لم يتأثر دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن بهذا النزاع الذى حدث فى مصر حول الخلافة والذى ترتب عليه ظهور فرقتين ، عرفت الأولى بالنزارية ، وكانت تدعى أن المستنصر أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٥ — ٣٧

(٢) (B. S. O. S.), 1934, vol vII Part 2 p. 318.

بعده . أما الفرقة الثانية فادعت أنه أوصى بهما لابنه المستعلى . وقد انحاز دعاة الاسماعيلية فى اليمن إلى هذه الفرقة وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى

، كذلك لم تلق فرقة النزارية التى اتخذت من بلاد المشرق مركزا لها بزعامة الحسن بن الصباح[1] – الذى مال إلى القول بإمامة نزار وأنكر إمامة المستعلى – أنصارا فى بلاد اليمن ، بل لقد أصبح اسم نزار مبغضا عند أهالى هذه البلاد كما هى الحال عند غالبية الاسماعيلية فى مصر .

كان النزارية فى مصر لا يعترفون بامامة المستعلى ويعملون على التخلص منه ومن وزيره الأفضل ، ولم يمتد نشاطهم إلى البلاد الواقعة فى دائرة النفوذ الفاطمى . أما فرقة المستعلية التى اتخذت مصر مقرا لها فنشطت فى بث الدعوة لامامة المستعلى وظهر أثر نشاطها جليا في بلاد اليمن حيث قام الدعاة بنشر الدعوة لهذا الخليفة . ولم تر السيدة الحرة التى كانت تتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير فى بلاد اليمن فى الخلاف الذى ظهر بين الاسماعيلية فى مصر عقب وفاة المستنصر بشأن أحقية المستعلى فى الامامة ما يجعلها تتخذ لنفسها سياسة مستقلة عن الدولة الفاطمية ، بل دخلت فى طاعة هذا الخليفة بعد أن وقفت على عوامل ثورة نزار ونجاح الأفضل بن بدر الجمالى فى القضاء عليها .

ولاشك أن تأييد السيدة الحرة ودعاتها الخليفة المستعلى ساعد على عدم تسرب النزارية إلى بلاد اليمن ، وبذلك لم تتفرق كلمة الاسماعيلية فى تلك البلاد كما تفرقت فى مصر .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن . فلما مات زوجها الداعى سبأ بن أحمد سنة ٤٩٢ هـ ولت المفضل ابن أبى البركات بن الوليد الحميرى داعيا مكانه [١] ، كما عهدت اليه بمعاونتها فى القيام بأمور الدولة . وقد ثار فى عهده جماعة من الفقهاء بحصن التعكر [٢] وبايعوا رجلا منهم يعرف بابراهيم بن زيدان على الدعوة الاسماعيلية ، وانحازت اليهم قبيلة خولان ، غير أن المفضل ما لبث أن حاصرهم وانتهى الأمر بالقضاء على ثورتهم [٣] .

كان من أثر انضمام الخولانيين إلى الخارجين على الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن سنة ٥٠٤ هـ وقيام النزاع بينهم وبين السيدة الحرة أن وجهت الخلافة الفاطمية بالقاهرة اهتمامها إلى معاونة السيدة الحرة ، فأوفد إليها الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى الداعى على بن ابراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ ليكون عونا لها ضد أعدائها ومنافسيها [٤] — وكان ذا دراية كبيرة بمذهب الشيعة — ، فلما وصل إلى جزيرة دهلك فى طريقه إلى بلاد اليمن ، قابله أحد الدعاة وأدلى إليه بأخبار تلك البلاد وأحوال أهاليها وتواريخ ميلادهم وأسمائهم وما يميزهم من علامات ، فكان إذا ما تحدث معهم عن غوامض الأشياء التى تتصل بهم اعتقدوا أنه يعلم الغيب [٥] .

---

(١) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥

(٢) قلعة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جبلة (ياقوت : معجم البلدان)

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٢٢

(٤) Enc. of Isliam, v. 4, p. 517.

(٥) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٢

اشترك ابن نجيب الدولة مع السيدة الحرة فى إدارة شئون بلاد اليمن، وصار من كبار الدعاة فى تلك البلاد ، كما ظل مخلصا للسيدة الحرة ومنفذا فى الوقت نفسه لسياسة الخليفة الفاطمى بالقاهرة ، وبذل جهدا مشكورا فى العمل على استقرار الأمور فى بلاد اليمن . ولما ولى المأمون البطائحى الوزارة فى مصر فى عهد الخليفة الآمر ، أمده بقوة من الفرسان ليضعف من شوكة أمراء اليمن الذين حاولوا الاستقلال ببعض البلاد[1] .

أثارت الحملات التى شنها ابن نجيب الدولة على بعض أمراء اليمن والتى انتهى الأمر فيها بهزيمتهم حقدهم عليه ، وصاروا ينتهزون الفرص للتخلص منــه ، فلما بعث المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر الفاطمى رسولا من قبله إلى اليمن سنة ٥٢٠ هـ لم يحفل به ابن نجيب الدولة وعوّل على الغض من شأنه ، فاستغل أعداؤه من الأمراء والدعاه موقفه العدائى من رسول الوزير الفاطمى للانتقام منه ، فاستمالوا هذا الرسول إليهم بالهدايا وأنضموا إليه فى عدائه لابن نجيب الدولة ، فأوعز إليهم بتدبير أمرين للتخلص منه : أما عن أولهما فقال : « اكتبوا على يدى إلى مولانا الآمر كتبا تذكرون فيها أنه دعاكم إلى نزار وراودكم على ذلك فامتنعتم » ، وقال عن ثانيهما : « اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها إلى مولانا الآمر بأحكام الله » ، فأجابوه إلى طلبه ، وبعث بكتبهم وبالسكة إلى الخليفة الآمر[2] .

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٣ — ٤٤ ، الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٧

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٦

لما وصل إلى الآمر الفاطمى الكتب والسكة وفيها مايدل على انصراف ابن نجيب الدولة عن الدعوة له وانحيازه إلى طائفة النزارية [1] عهد إلى الأمير الموفق بن الخياط بالقبض عليه وإرساله إلى مصر؛ فقدم ابن الخياط على السيدة الحرة وطلب منها أن تسلم إليه ابن نجيب الدولة تحقيقا لرغبة

---

(١) كان للنزارية أتباع فى مصر لا يعترفون بإمامة الآمر ويثيرون القلاقل ضده بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى قلعة ألموت الذين كانوا يمدونهم بالمال؛ فرأى الخليفة الفاطمى أن يرسل إلى زعيمهم الحسن بن الصباح كتابا يفند فيه حجج فرقته التى تقول بأحقية نزار فى الإمامة ودعا إلى قصره قبل أن يرسل كتابه، الفقهاء من الاسماعيلية والإمامية وقال لهم وزيره المأمون البطائحى: ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية؛ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله.

وكانت أخت نزار إذ ذاك تجلس فى قاعة صغيرة بجانب الايوان بالقصر وعلى الباب ستر؛ فلما فرغ فقهاء الاسماعيلية من الإدلاء برأيهم فى أقوال الخارجين على الخليفة قالت: «اشهدوا على يا جماعة الحاضرين وبلغوا عنى جماعة المسلمين أن أخى شقيقى نزارا لم يكن له إمامة وإنى (بريئة) من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها....».

ولما انفض المجلس، عهد المأمون البطائحى إلى ابن الصيرفى بكتابة رسالة لابن الصباح يدحض فيها آراء النزارية فى الإمامة؛ غير أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد ابن الصباح لعدول رسل الخليفة عن مواصلة السفر إليه بسبب الأنباء التى وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق، واتصالها بأتباعها فى مصر لتدبير مؤامرة لقتل الآمر ووزيره المأمون. لذلك لا نعجب إذا رأينا الآمر يتتبع حركاتهم فى جميع البلاد الخاضعة لنفوذه ويعمل على التخلص من تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم، لكنه رغم اتخاذه الحيطة لدرء خطرهم عنه اغتاله فريق منهم.

ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٦٥ — ٦٨، المقريزى: خطط ج ١ ص ٤٠٧

الخليفة ، فامتنعت أول الأمر وقالت له : « أنت حامل كتاب مولانا فخذ جوابه » ، وبعثت إلى الآمر بأحكام الله هدية وكتابا مع رسولها محمد ابن الأزدى شفعت فيه لابن نجيب الدولة، غير أن شفاعة السيدة الحرة لم تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمى ، فقد أحاط أعداء نجيب الدولة[1] به واعتقلوه وأرسلوه إلى مصر ، وأخّروا رسول السيدة الحرة خمسة عشر يوما حتى لا يعلم الخليفة بحقيقة موقف ابن نجيب الدولة منه . ولم يكتفوا بذلك ، بل أوعزوا إلى ربان المركب الذى أبحر عليه هذا الرسول أن يغرقه فى الماء ؛ فلبى رغبتهم ومات محمد بن الأزدى غريقا قبل أن يواصل سفره إلى مصر فجزعت السيدة الحرة على وفاته ، كما أسفت على فقد ابن نجيب الدولة — وكان نصيرا لها ومن أكابر دعاة اليمن — ، وقد قتل بأمر الخليفة الآمر ، على أثر قدومه إلى القاهرة سنة ٥٢١ هـ[2] ، فأقامت مكانه الداعى ابراهيم بن الحسين الحامدى[3] .

كانت السيدة الحرة على اتصال وثيق بالخليفة الآمر ، فتبودلت بينهما الكتب والرسل . وقد أظهرت ولاءها لهذا الخليفة ، فاعترفت بإمامته ، كما اعترفت من قبل بإمامة أبيه المستعلى وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن .

وكان الخليفة الآمر ينظر إلى السيدة الحرة نظرة تقدير وإجلال ويرى أنها من خيرة أعوانه بعد أن تبين له إخلاصها فى نشر دعوته ؛

---

(١) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ص ٤٧

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٠

(٣) Kay, Yaman, Its Early Mediaeval History, p. 298.

لذلك حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده ؛ فلما رزق ابنه أبا القاسم الطيب فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ وجعله ولى عهده ، كتب إلى السيدة الحرة يبشرها بمولد ولده الإمام أبي القاسم الطيب ويعرفها أنه ولى عهده ويأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن ؛ وفيما يلى نص السجل الذى أرسله الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى إلى الملكة الحرة الصليحية فى هذا الشأن[1] : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، من عبد الله ووليه المنصور أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن ، عمدة الاسلام ، خاصة الامام ، ذخيرة الدين ، عمدة المؤمنين ، كهف المستنجدين ، عصمة المسترشدين وولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين ، أدام الله تمكينها ونعمتها وأحسن توفيقها ومعونتها سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن

---

(١) ذكر (ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٢) كيف احتفل الخليفة الآمر باعلان البشرى بولادة ابنه أبى القاسم الطيب وتوليته الإمامة من بعده فقال : « زينت مصر والقاهرة وعملت الملاهى فى الأسواق وبأبواب القصور ، ولبست العساكر وزينت القصور ، وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا وآلات وصياغات وأوانى ذهب وفضة فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح ، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما وأحضر الكبش الذى يذبح فى العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة وذبح بحضرة الآمر وأحضر المولود ، فشرف قاضى القضاة ابن ميسر بحمله ونثرت الدنانير على رءوس الناس وعملت الأسمطة ، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقليوبية بإحضار الفواكه ، فأحضرت وملىء القصر من الفواكه وغيرها وامتلأ الجو بدخان العود والعنبر » .

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٠ — ١٠١

يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ وعلى آله الطاهرين الأئمة المهتدين وسلم تسليما ، أما بعد : فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا تحصى لها عد ولا تقف عند أمد ولا حد ولا تنتهى إلى الاحاطة بها الظنون لكونها كالسحاب الذى كلما انقضى سحاب أعقبها سحاب ، فهى كالشمس الساطعة الاشراق الدائمة الانتظام والاتساق ، والغيوث المتتابعة الانصال الموالية بالغدو والآصال ، ومن أشرفها لديه قدرا وأعظمها صيتا وذكرا ، وأسناها جلالا وفخرا الموهبة بما جدده الآن بأن رزقه مولودا زكيا مرضيا برا تقيا ، وذلك فى الليلة المصبحة بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤ ؛ ارتاحت إلى طيب ذكره أسرة المنابر وتطلعت إلى مواهبه آمال كل باد وحاضر ، وأضاءت بأنوار عزته وبهجة طلعته ظلم الدياجر ، وانتظمت به للدولة الزاهرة الفاطمية عقود المفاصل والمفاخر استخرجه من سلالة النبوة كما يستخرج النور من النور ، ومنح المؤمنين منه ما قدح زناد السرور وسماه الطيب لطيب عنصره وكناه أبا القاسم كنية جده نبى الهدى المستخرج جوهره من جوهره ؛ وأمير المؤمنين يشكر الله تعالى على ما من به من اطلاعه كوكبا منيرا فى سماء دولته وشهابا مضيئا فى فلك جلالته ورفعته شكرا يقضى باستدامه نعمته ... ويسأله أن يبلغه فيه كنه الآمال ويصل به حبل الامامة ما اتصلت الأيام بالليالى ويجعله عصمة للمسترشدين وحجة على الجاحدين وعونا للمنتجعين وسعادة للعارفين لتنال الدنيا بسعادته أو فى حظوظها وقسمها ... ، ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين ومحلك الذى امتنع عن المماثل والقرين ، أبشرك هذه البشرى الجليل قدرها ، العظيم فخرها ، المنتشر

صيتها وذكرها لتأخذى من المسرة بها بأوفى نصيب وتذيعيها فيمن قبلك من الأولياء والمستجيبين إذاعة يتساوى فى المعرفة بها كل بعيد منها وقريب لينتظم بها عقد السرور ، فاعلمى هذا واعملى به إن شاء الله تعالى وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله والأئمة الطاهرين وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين » .

لما قتل الخليفة الآمر فى أواخر سنة ٥٢٤ هـ ، أخفى الأمير عبد المجيد ابن محمد بن المستنصر أمر الامام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلا لحمل منتظر . فلما وضعت إحدى نساء الآمر بنتا استقرت الخلافة للأمير عبد المجيد وتلقب بالحافظ وقرىء فى ٣ ربيع الآخر ٥٢٦ هـ بإمامته ، وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صلى على الذى شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره وأعززت به الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين »[1] .

لم تنظر السيدة الحرة إلى الوسيلة التى اتبعها الخليفة الحافظ للوصول إلى عرش الخلافة بعين الرضا ، فقد اعتبرت إمامته باطلة على الرغم من الكتب التى أرسلها إليها ؛ فقد بعث إليها على أثر توليته الحكم سجلا بدأه بعبارة « من ولى عهد المسلمين » ؛ ثم أرسل إليها سجلا آخر فى السنة التالية مبتدئا بعبارة « من أمير المؤمنين » . وقد حاول الحافظ فى كتبه

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٤ — ٧٥ ،

التى بعثها إلى السيدة الحرة أن يستميلها إليه ، لكنه أخفق فى ذلك لأنها كانت على علم بولد الإمام الطيب وأخذت على نفسها العهد بنشر الدعوة له ، ولهذا تخلت عن الدعوة للخليفة الحافظ وقالت « حسب بنى الصليحى ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب [١] . »

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على أن يكون للدعوة الطيبيّة فى بلاد اليمن النفوذ الأسمى وامتد نشاطها فى سبيل الإبقاء على تلك الدعوة إلى بلاد الحجاز ، ذلك أنها حين وصل إليها أن أمير مكة هاشم بن فليته ابن القاسم [٢] (٥٢٧ — ٥٤٩ هـ) يقيم الخطبة للخليفة الحافظ بعثت إليه تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة لهذا الخليفة [٣] ؛ ولا شك أنها كانت تأمل من وراء ذلك أن يحذو الأمير حذوها فى إقامة الدعوة للإمام الطيب .

لقى عدم اعتراف السيدة الحرة بإمامة الخليفة الحافظ ارتياحا من فرقة المستعلية بمصر التى كانت ترى وجوب انحصار الإمامة فى أولاد المستعلى ، بل إن هذه الفرقة نظرت إلى السيدة الحرة على أنها الممثلة الحقيقية للمذهب الاسماعيلى فى بلاد اليمن .

على أن الخليفة الحافظ لم يفقد الأمل فى نشر الدعوة له فى بعض مدن اليمن ، فقد استعان بآل زريع بعدن فى بث دعوته . وكان لجدهم عباس

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٢ .

(٢) صحح هذا الاسم طبقا لما أورده (Zombaur, Manuel de Généalogie et de Chronologie pour L'Histoire de L'IslaM p. 21)

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٠٤ .

ابن المكرم[١] ما آنو طيبة فى نشر الدعوة للمستنصر بالله الفاطمى مع الداعي على بن محمد الصليحى ثم مع ابنه أحمد المكرم[٢].

ولى العباس بن المكرم وأخوه مسعود ولاية عدن من قبل السيدة الحرة ، وظلا يحملان إليها كل سنة مائة ألف دينار . ولما توفى العباس انتقل عمله إلى ابنه زريع ، وخلف مسعود ابنه أبو الغارات وقد خرج كل من زريع وأبو الغارات على طاعة السيدة الحرة ؛ فحاربهما وزيرها المفضل بن أبى البركات ، ثم تصالحا معه على أن يؤديا للسيدة الحرة نصف خراج عدن ؛ غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا ، وظل آل زريع يناضلون السيدة الحرة حتى تخلصوا من نفوذها فى عدن[٣].

عنى دعاة آل زريع بإقامة الدعوة للخليفة الحافظ ، كما حرص هذا الخليفة على تقليدهم أمر دعوته ؛ فبعث فى سنة ٥٣٤ هـ رسالة مع أحد رسله تتضمن تقليد على بن سبأ بن أبى السعود بن زريع الدعوة ؛ ولما علم

---

(١) كان بنو معن بن زائدة قد ملكوا عدن أيام الخليفة المأمون العباسى ورفضوا الدخول فى طاعة بنى زياد بزبيد واكتفوا بإقامة الخطبة للخليفة العباسى. ولما استولى الداعى على بن محمد الصليحى على بلاد اليمن رعى لهم حق العروبة وأبقاها فى أيديهم ، وقرر عليهم ضريبة سنوية ، ولم يزالوا بها حتى أخرجهم منها ابنه المكرم احمد وولى عليها العباس ومسعود ابنى المكرم الهمدانى

تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩ . العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٧ .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٨ ، تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٨ .

(٣) تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩ .

الرسول أن هذا الرجل قد توفى فلدها أخاه محمد بن سبأ [١] ولقب بالداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين [٢]. وبلغ من اهتمام الخليفة الحافظ بإقامة الدعوة له أن أرسل فى سنة ٥٢٩ هـ رسولا من قبله إلى بلاد اليمن يدعى أحمد بن على بن ابراهيم بن الزبير الغسانى الأسوانى ليقوم بنشر دعوته [٣].

كان من أثر قيام السيدة الحرة بالدعوة للامام الطيب دون الخليفة الحافظ وانفراد آل زريع بالدعوة لهذا الخليفة أن انقسمت إسماعيلية اليمن تبعا لذلك إلى طائفتين : إحداهما تؤيد الدعوة الطيبية وعلى رأسها السيدة الحرة ، والأخرى تناصر الخليفة الحافظ يتزعمها آل زريع .

على أن الدعوة الطيبية مالبثت أن ضعف أمرها بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٣٢ هـ . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلف هذه السيدة وتسير سيرتها فى نشر الدعوة للامام الطيب ؛ فقد زال ملكهم وآلت الحصون والذخائر الأموال التى كانت تحت يد السيدة الحرة إلى منصور بن المفضل وبن أبى البركات الذى عجز عن الاحتفاظ بما انتقل إليه من ملك .

تطلع آل زريع بعد أن توفيت السيدة الحرة إلى بسط سلطانهم على قلاع الصليحيين الذين زالت دولتهم ؛ فاستغل الداعى محمد بن سبأ الزريعى ضعف المنصور بن المفضل بن أبى البركات الذى آلت إليه هذه

---

(١) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ص ٤٧ .

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٩ .

(٣) الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ص ٥ .

القلاع وابتاعها منه بمائة ألف دينار فى سنة ٥٤٧ هـ [١] ؛ فقوى نفوذهم تبعا لذلك ، وظلوا موالين للخلافة الفاطمية فى مصر ، يؤدون إليها فى كل سنة مبلغا معينا من المال للانفاق منه على المذهب الإسماعيلى [٢] .

أخذت دولة بنى زريع بعدن فى الانحلال بعد وفاة محمد بن سبأ الزريعى سنة ٥٤٨ هـ ؛ وتجلى ضعفها فى عهد ابنه عمران الذى استعان بياسر بن بلال فى تدبير أمور دولته واستمر على ولائه للفاطميين إلى أن توفى سنة ٥٦٠ هـ ، فاستأثر ياسر بالسلطة [٣] وزال بذلك ملك بنى زريع.

أصبح النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن مهددا بالزوال منذ ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور فى مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، فقد طمع فى بسط سلطانه على البلاد التى كانت تحت السيادة الفاطمية وولى وجهه فى بادىء الأمر نحو اليمن [٤] ، فبعث إليها أخاه الأمير شمس الدولة توران شاة على رأس حملة سنة ٥٦٩ هـ . ولما وصل توران شاه إلى تلك البلاد بدأ عمله بالقضاء على دولة بنى مهدى بزبيد التى كانت تناصر الفاطميين بمصر [٥] ، فقبض على أميرها

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) تاريخ ابن المجاور : القسم الثانى ورقة ١٠٣ .

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢٤٩ .

(٤) ذكر المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الأول ص ٥٢ ٥٣) انه من الأسباب التى حملت صلاح الدين على فتح بلاد اليمن رغبته فى إقامة دولة بها يلجأ اليها إذا ماحاول نورالدين محمود أن ينزع منه مصر .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٩ .

عبد النبى بن مهدى لقطعه الخطبة العباسية واستولى على زبيد، ثم فتح صنعاء وسار إلى عدن حيث أوقع الهزيمة بواليها ياسر بن بلال وضمها إلى حوزته . ولما فرغ من أمرها عاد إلى زبيد وامتلك قلعة تعز — وهى من أحصن القلاع — ، ولم يزل يتقدم فى فتوحه حتى بسط سلطانه على معظم بلاد اليمن [1] ، وتلقب بالملك المعظم وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضىء بأمر الله العباسى فى جميع البلاد التى فتحها [2] ، وولى سيف الدولة مبارك ابن منقذ على زبيد وعز الدين عثمان بن الزنجبيلى على عدن ، كما عين فى كل قلعة من قلاع اليمن التى دخلت فى حوزته نائبا من أصحابه [3] ، ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧١ هـ [4] .

وهكذا قضى على الدعوة الفاطمية ببلاد اليمن ، كما زال نفوذ الفاطميين منها وانتقلت السيادة فى تلك البلاد إلى الأيوبيين الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين وأقاموا الخطبة لهم فى جميع البلاد التى تحت سيطرتهم .

---

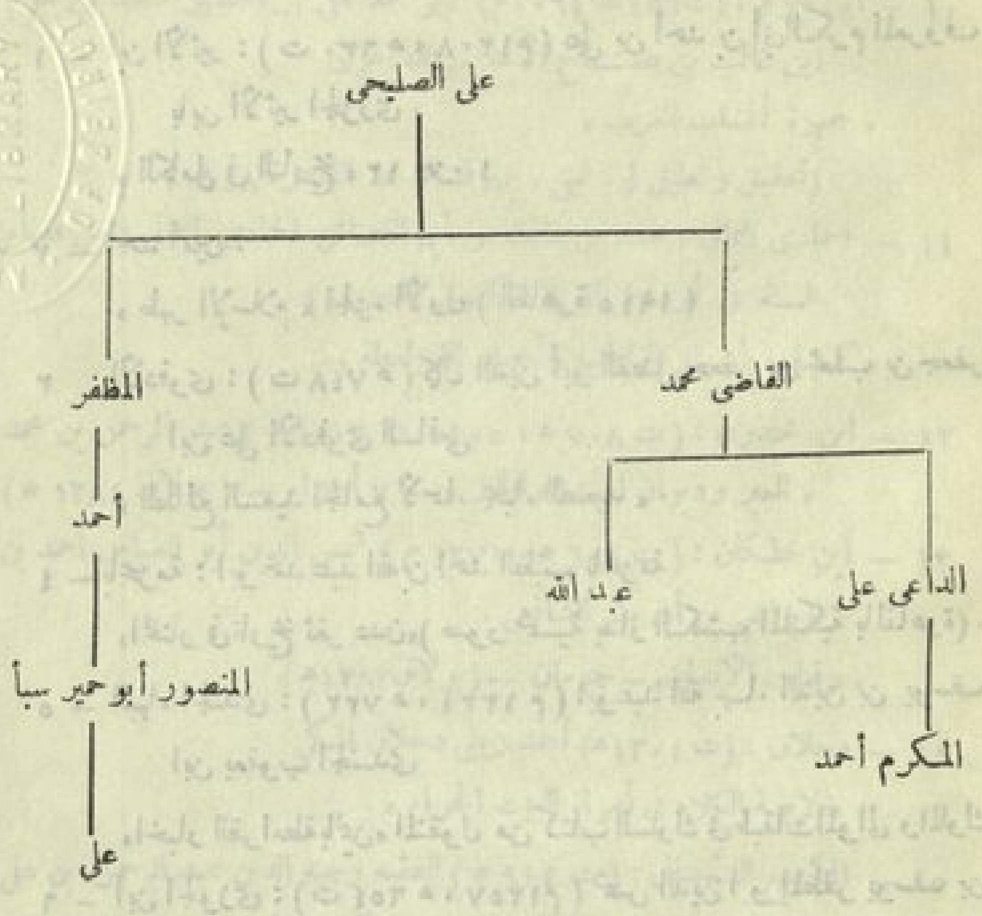
(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٤٨ — ١٤٩ ، المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٤٩ .

(٤) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٤١ .

أسرة الصليحى ببلاد اليمن (١)





(١) Kay, Yaman, Its Early Mediaeval History p. 304.

مصادر الكتاب

١ — ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ ، ١٢٢٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرى .

« الكامل فى التاريخ » ١٢ جزء ا

٢ — أحمد أمين :

« ظهر الإسلام » الجزء الأول (القاهرة ١٩٤٥)

٣ الأدفوى : (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر ابن على الأدفوى الشافعى

« الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد » .

٤ — باعزمة : ابو محمد عبد الله بن احمد الطيب باعزمة

« المختار فى تاريخ ثغر عدن » (صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة) .

٥ — البهاء الجندى : (٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) ابو عبد الله بهاء الدين بن يوسف ابن يعقوب الجندى

« اخبار القرامطة باليمن » المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك

٦ — ابن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ ، ١٢٥٧م) شمس الدين ابو المظفر يوسف بن غزا أوغلى المعروف بسبط بن الجوزى

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان »

(صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ) .

٧ — حسن ابراهيم حسن : (دكتور)

(ا) « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (القاهرة ١٩٣٢ م)

٨ — (ب) « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » (الجزء الثالث — القاهرة ١٩٤٦ م) .

٩ — حسن ابراهيم حسن ، طه احمد شرف
«كتاب عبيد الله المهدى إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب» (القاهرة ١٩٤٧م)

١٠ — ابن حزم : (ت٤٥٦هـ، ١٠٦٤م) ابو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم ابن غالب بن صـــالح الأندلسى الظاهرى
«جمهرة أنساب العرب»
(تحقيق وتعليق إ . ليفى . بروفسال — القاهرة ١٩٤٨)

١١ — الحمادي اليماني : محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني (من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)
«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» .

١٢ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد
«العبر وديوان المبتدا والخبر» ، — ٧ أجزاء — (بولاق ١٢٨٤ هـ)

١٣ — ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ ، ١٢٧١ م) شمس الدين أبو العباس احمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعى .
«وفيات الأعيان» — جزءان — (بولاق١٢٨٣هـ)

١٤ — دحلان : (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زينى دحلان المكى
«خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام» .

١٥ — الدّيبع الشّيبانى : (ت ٩٤٤ هـ) الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن على ابن محمد الشيبانى الشافعى المشهور بالديبع الزبيدى
«قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون» ، (صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة) .

١٦ — عبد العزيز الدورى :
«دراسات فى العصور العباسية المتأخرة» ، (بغداد ١٩٤٥ م) .

١٧ — عبد القادر الأنصارى : (الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدوى محمد ابن ابراهيم الأنصارى) . (من علماء القرن العاشر الهجرى)
«درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» ، (مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة) .

١٨ — العرشى : القاضى حسين بن أحمد العرشى الزيدى — (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى)
« بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام »
(نشر الأب أنستاس مارى الكرملى) .

١٩ — عمارة اليمنى : (ت ٥٦٩ هـ ، ١١٧٤ م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على ابن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين
« تاريخ اليمن »(نشر Henri Cassels Kay)

٢٠ — عمارة اليمنى :
« النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية »(نشر Hartwig Derenboury)

٢١ — أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ ، ١٣٣١م) اسماعيل بن على عماد الدين
« المختصر فى أخبار البشر » (٤ أجزاء) .

٢٢ — القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » (١٤ جزءا) .

٢٣ — ابن المؤيد اليمنى : (يحيى بن الحسين)
« أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » (صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة — رقم ١٣٤٧)

٢٤ — ابن المجاور : (ت ٦٩٠ هـ) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشق
« تاريخ ابن المجاور » (صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة . رقم ٥٣٤٢)

٢٥ — أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ ، ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (نشر دار الكتب الملكية بالقاهرة) .

٢٦ — المقدسى : (ت ٣٨٨ هـ ، ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر البناء الشامى المقدسى المعروف بالبشارى
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (المكتبة الجغرافية العربية — المجلد الثالث) (طبعة دى غوية . ليدن ١٩٠٦ م) .

٢٧ — المقريزى : (٨٤٥ هـ ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على
«السلوك لمعرفة دول الملوك» ، (نشر الدكتور زيادة) .
٢٨ — المقريزى :
«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ، (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) .
٢٩ — المقريزى :
«اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» . (نشر الدكتور جمال الدين الشيال — القاهرة ١٩٤٨م) .
٣٠ — ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ ، ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب «تاريخ مصر» ، (طبعة هنرى ماسيه Henri Massé . القاهرة ١٩١٩م)
٣١ — النويرى : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» ، (صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة رقم ٥٤٩) .
٣٢ — ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى «معجم البلدان» ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦م) .
٣٣ — اليمانى : محمد بن محمد
«سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسة» ، (نشر إيفانوف . مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ديسمبر ١٩٣٦) .

* * *

34. Al-Hamdani, (Husain) :
"Letters of Al-Mustansir Billah" (Bulletin of the School of Oriental Studies, vo. VII I. part 2. 1934).
35. De Goeje, :
"Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides" (Leyden, 1886).
36. Ivanow, :
"The Rise of Fatimids"
37. Kay, (Henri Cassels):
"Yaman, Its Early Mediaeval History"
38. Lane-Poole, (Stanley) :
"A History of Egypt in the Middle Ages".

39. Mez, (Adam) :
"Die Renaissence des Islams".

(نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده تحت عنوان ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، — القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١) .

✓ 40. O'Leary, (De Lacy) :
"A Short History of the Fatimid Khalifate".

41. Weit, (Gaston) :
"Histoire de la Nation Egyptienne, vol. IV" (L'Egypte Arabe).

42. Zambaur, (E. De), :
"Manuel de Généalogie et de Chronologie pour L'Histoire de L'Islam".

✓ 43. Encyclopaedia of Islam.

✓ 44. Encyclopaedia of Religion and Ethics.

فهرس أسماء الأعلام

(تنبيه) اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف، وبلفظى : الأب والابن . مثال ذلك : (ابن باديس) فقد ذكرناه فى حرف الباء ، و (ابن جفتم) تجده فى حرف الجيم . و (أبو سعيد) فى حرف السين .

فهرس أسماء الأماكن

